تمهيد
حياة الشعر وثقافته

أولاً ـ التعريف بأبي نواس:

ـ الاسم والكنية واللقب:

ليس هناك خلاف كبير على اسم الشاعر. فهو الحسن بن هانىء أو هُنَيّ[1]. ولكنا لا نكاد نتجاوز الأب إلى جد الشاعر أو جد أبيه حتى نلتقى بالاجتهادات المختلفة لتعود بنسب الشاعر إلى أصـول بعيدة. ثم إن أبا نواس عند عامة الكُتّاب غير عربي. والمهم أن اسم شاعرنا واسم أبيه كلاهمـا عربي. ولكن ذلـك ليس كافياً ليكون الشاعر نفسه أو أبوه عربياً فقد أصبحت الأسماء والأنساب العربية تنتظم جميع الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الإسلام واتخذت العربية لساناً قومياً لها[2].

ومن أقدم الكُتّاب الذين نعتد بأقوالهم في هذا المجال أبو هفان: عبدالله بـن أحمد بن حرب المهزمي صاحب كتاب «أخبار أبي نواس» الذي قيل إنه مات سنة ٢٥٥هـ أو سنة ٢٥٧هـ أو ١٩٥هـ[3].

ويذكر أبن المعتز في «طبقاته»[4] أن أبا هفان كان أحد رفقاء أبي نواس أو رواته أو غلمانه. ولذلك فالرجل وثيق الصلة بالشاعر وهو يضع اسمه على هذه الصورة (وهو أبو علي الحسن بن هانىء بن الصباح مولى الجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان)[5]. ومثله «ابن قتيبة» قريب العهد من أبي نواس (٢١٣ـ٢٧٦هـ). وكذلك ابن المعتز (٢٤٧ـ٢٩٦هـ) في أكثر من موضع من طبقـاته الذي يكتفي بالوقوف عند أبي الشاعر لا يتجاوزه إلى من قبله من الآباء والأجداد، فهو

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور: ٤/١، ومختار الأغاني ٨/٣.

(٢) تاريخ الأدب العباسي لنكلسون ص٥٢ ترجمة د. صفاء خلوصي طبعة بغداد ١٩٦٧.

(٣) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص٩ (المقدمة).

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤١٠.

(٥) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩.

الحسن بن هانىء[1] ليس أكثر.

وواضح أنه لا خلاف على اسم الشاعر عند هؤلاء الكتّاب المتقدمين قريبي العهد منه، أما أبوه هانىء فقد كان فيه بعض الخلاف، إذ تذكر بعض الكتب أن اسمه «هني» بدل «هاني» (فلما كبر أبو نواس وأدب غيّر اسم أبيه وقال لنفسه حسن بن هانىء وإنما كان حسن بن هنى[2]. ولعل الخلاف بين «هانى» و«هنى» ليس كبيراً، لكن بعض المصادر المتأخرة تذكر أن اسم أبيه هو «وهب» على حد ما يذكر صاحب «النجوم الزاهرة» (وقيل الحسن بن وهب الحكمي الشاعر المشهور حامل لواء الشعراء في زمانه)[3].

أما أُمه ففي اسمها خلاف أيضاً، ولكن أشهر ما عرفت به من أسماء هو جلبان[4] ومعناه وردة على أذن أو في بستان أو على غصن[5]. وأيضاً:

(وقيل أن أُمه يقال لها شحمة بنت تسرمن؟)[6].

وقد ورد اسم أُمه «شحمة» هذا في قصيدة للحكم بن قنبر يهجو بها أبا نواس حيث يقول:

سألت الخُوزَ عنك فما أساؤُا ... وقالوا ثابتٌ فينا المراسِي

عهدنا شحمةَ تَرْعى رماماً ... ونسّاجا يدور إلى اختلاس[7]

هذا في حين تذكر بعض المصادر أن اسم أُمه خلبان، لعل ذلك عن خطأ في النقل أو الرواية[8].

أما صاحب «الأغاني» الذي لم يفرد لشاعرنا ترجمة خاصة مما أثار استغراب «ابن منظور»[9] فإنه يذكر أن اسم أُم أبي نواس هو «جلنار» أخذه من هجاء «أبان» لأبي نواس حيث يقول:

إن يكن هذا النواسيُّ ... بلا ذنبٍ هجانَا

فلقد .....

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٨٧، ١٩٣.
(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤.
(٣) النجوم الزاهرة، ٢/١٥٦.
(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤.
(٥) في جو أبي نواس لعلي شلق ص٢٤ معتمداً على مصادره، وأخبار أبي نواس لابن منظور ١/٤.
(٦) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥.
(٧) المرجع السابق نفسه ١/٣٢، ومختار الأغاني ٣/٢٢.
(٨) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٢٢٧.
(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١.

عجَـنـوا من جُلّنـارٍ[1] ليكـيـدُوك عِجَـانَـا

أما عن الكنى التي اكتنى أو تكنى بها أبو نواس فثلاث هي: أبو علي وأبو نواس وأبو فراس. وعندي أن «أبا علي» أقدمها لكون هذه الكنية يطلقها المسلمون في كثير من البلاد الإسلامية مثل مصر والعراق على كل من تسمى بالحسن أو الحسين «فإطلاق كنية» أبي علي» على «أبي نواس» مرتبطة فيما نرجح باطلاق اسم الحسن عليه.

هذا، بينما كانت الكنية «أبو نواس» متأخرة، أو لا بد أن تكون كذلك. يقول ابن منظور: (وكانت كنيته قبل ذلك أبا علي وإنما كان يشتهي أن يلقب بأبي نواس لشهرته وأنه من أسماء ملوك اليمن)[2]. من أجل ذلك رأينا بعض المصادر القديمة تصدر اسمه عند التعريف به بكنية: أبي علي من مثل قولهم: (وهو أبو علي الحسن بن هانىء)[3] ثم (.. المعروف بأبي نواس)[4] وأيضاً (وأما أبو علي الحسن بن هانىء المعروف بأبي نواس الشاعر..)[5].

أما ابن المعتز فإنه يورد الكنيتين: أبا علي، وأبا نواس بصيغة الخطاب للأولى والغائب للثانية، يقول: (ثم قالوا لأبي نواس: كأنا بك يا أبا علي قد جئت بقولك...)[6].

(وقال أبو نواس...)[7] و(والبة هو الذي أدب أبا نواس...)[8].

ونحن لا نستطيع إلّا أن نقول أن «أبا علي» هي الكُنية الأصلية أو السابقة، في حين كانت الكُنية الثانية «أبو نواس» هي الشهيرة.

على أني لاحظت أن الكنية «أبا علي» لا ترد مفردة اكتفاءاً بها للتعريف بالشاعر، فهي لا تأتي إلّا مع الاسم «الحسن» أو كنيته الثانية «أبي نواس». وربما أتت مع لقبه الحكمي فيقال أبو علي الحكمي[9].

أما عن سبب تكنيه «بأبي نواس» فإن الكتب القديمة تنقل لنا أخباراً طريفة في هذا الخصوص،

---

(١) الأغاني للأصفهاني ٢٣/١٥٦ (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٤.

(٣) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩.

(٤) المصدر السابق نفسه ص١٢١.

(٥) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ص٧٧. ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٩٥. وخزانة الأدب للبغدادي ١/٣٤٧.

(٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٧٣.

(٧) المصدر السابق نفسه ص٧٤.

(٨) المصدر السابق نفسه ص٨٧.

(٩) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٢٤٢.

من ذلك ما جاء في ابن منظور: (سئل عن كنيته «أبي نواس» ما أراد منها ومن كناه بها، وهل له ولد اسمه نواس وهو أبو نواس؟ فقال: نواس وجدن ويزن وكلال وكلاع أسماء جبال لملوك حمير، والجبل الذي لهم يقال له نواس)[1].

(وسئل مرة أخرى، فقال: سبب كنيتي أن رجلاً من جيراني بالبصرة دعا أخواناً له، فأبطأ عليه واحد منهم فخرج من بابه يطلب مَنْ يبعثه إليه ليستحثه على المجيء، فوجدني مع صبيان ألعب معهم وكان لي ذؤابة في وسط رأسي، فصاح بي، يا حسن أمضِ إلى فلان جئني به، فمضيت أعدو لأدعو الرجل وذؤابتي تتحرك فلما جئت بالرجل، قال لي: أحسنت يا أبا نواس (لتحرك ذؤابتي) فلزمتني هذه الكنية)[2]، ومعنى هذا، إن هذه الكنية لازمته منذ نعومة أظفاره وهو حدث في البصرة قبل أن يشتهر ويصبح علماً بين الشعراء.

ورواية ثالثة، إذا صدقت، ينقلها لنا ابن منظور أيضاً تدل على تأخر تكنيه بأبي نواس ـ لعلها لحقته بعد أن نبه شأنه وأصبح من المعدودين في زمانه. تقول الرواية:

(وسئل مرة أخرى فقيل له: مَنْ كنّاك بأبي نواس! فقال: أنا كنيت نفسي بذلك لأني من قوم لا يشتهر فيهم إلاّ مَنْ كان اسمه فرداً وكانت كنيته لسبعة[3] فتكنيت بأبي نواس، وهو بضم النون وتخفيف الواو، ويروى بفتح النون مخففة أيضاً)[4].

وواضح أن هذه الرواية ترجع تاريخ الكنية إلى سن متأخرة لأنها جاءت باختيار الشاعر، بعد أن اشتد عوده وأصبح يبحث لنفسه عن مكان مناسب في المجتمع يتفق ومكانته الأدبية، وإلاّ فما الذي يدعوه إلى التكني بمثل هذه الكنية. كنية الامراء من الاذواء والاقيال في اليمن، من أجل ذلك كان الشاعر يشتهي أن يلقب «أي يكنى» (بأبي نواس لشهرته وأنه من أسماء ملوك اليمن[5]. وقد يكون استاذه خلف الأحمر هو الذي اقترح عليه أن يتكنى بأبي نواس لأن «خلفاً» كان شديد التعصب لليمن لولائه فيهم، كما كان أميل الناس إلى أبي نواس (فقال له يوماً): أنت من اليمن فتكن باسم ملك من ملوكهم الاذواء، فاختار ذا نواس فكناه أبا نواس بحذف صدره وغلبت عليه)[6].

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٣.

(٢) نفسه ١/٣. (٣) نفسه ١/٣.

(٤) في الهامش في نفس الصفحة السابقة جاء قوله: (لعله يريد الاذواء وهم الذوون ملوك اليمن من قضاعة وهم ذو يزن، وذو رعين، وذو فائش، وذو جدن، وذو نواس، وذو أصبح، وذو كلاع، وهم التبابعة).

(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤. (٦) خزانة الأدب للبغدادي، ١/٣٤٧.

وهناك من الأخبار ما يجعل كنيته «أبا نواس» متأخرة جداً، لحقت بالشاعر أو اختارها هو نفسه بعد رحيله إلى بغداد، أي بعد أن بلغ الثلاثين من عمره أو أكثر، إذ كانت كنيته حينئذ كما تذكر الأخبار أبا نواس، يقول ابن منظور:

(حدث ابن يحيى الثقفي صاحب أبي موسى ونديمه قال: قدم علينا أبو نواس بغداد، وكان يكنى بأبي فراس)[1]. منتسباً بذلك إلى الفرزدق، حتى إذا أنكر عليه التميميون ذلك وهجاه الحكم بن قنبر بن رياح التميمي وفضحه (عدل عن كنيته بأبي فراس واكتنى بأبي نواس تشبهاً بكنية ذي نواس كما كانت اليمن تكتنى)[2].

وكنية أبي نواس أشهر ما تكنى به الشاعر حتى أصبحت له اسم الشهرة وحلت محل اسمه فعلاً[3]. ثم داخلها التغيير مع الاستعمال الجاري فأصبحت «أبو النَّوّاس»[4] «بتشديد النون والواو وزيادة الألف واللام لتكون هذه الكنية، بل الشهرة بل اللقب إن أردت التوسع في دلالة اللفظ علماً على مثال فرد من الشطارة والحذاقة واللباقة والخبث، وكل ما يخطر على بال الدارس من الخصائص المتميزة لفرد اتصفت حياته بكل مثير طريف جذاب أحياناً، ومنفر ومستكره أحياناً أخرى، وكنية أبي نواس لا شك هي الأقدم والأشهر من أية كنية أخرى للشاعر.

أما عن لقبه أو ألقابه فكثيرة جداً، قد يصعب الإلمام بها جميعاً. . . بعضها صفات منتزعة من صميم مواهبه الأدبية وإمكاناته العلمية، والأخرى ذات دلالة أخلاقية سلوكية. والثالثة أطلقت على الشاعر لأسباب عرقية أو موطنية.

وهذه الألقاب جميعاً كانت تطلق على الشاعر في مناسبات مختلفة، لتصور موقف المجتمع من الشاعر حينئذ وتقييمه لشخصه وتقديره وأسلوب تعامله وسلوكه.

وأول ما تجب ملاحظته أنه لولاء آبائه في اليمن: حاء وحكم منهم[5]، فإن الكثير من الكتب

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٢٨.

(٢) نفسه ١/٣٧.

(٣) لذلك كانت بعض المصادر القديمة تكتفي في إشارتها إلى الشاعر بهذه الكنية من دون اسمه. مثال ذلك ما ورد في الحيوان للجاحظ ٢/٢٦٤، ٣/١٢٩، ٤٦٥، ٦/١٠٢، ٧/٢٢٤.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣٤ حيث عيرته عنان بقولها:

أبو النواس اليماني وأمه جلبـــان

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٧٧٠.

تضيف إلى اسمه لقب «الحكمي» فترد صيغة اسمه على هذه الصورة «أبو نواس الحسن بن هانىء الحكمي»[1]. وقد يجتمع الاسم مع الكنية مع اللقب (النسبة القبلية) في صيغة واحدة فيقال: الحسن بن هانىء أبو علي الحكمي الشاعر المعروف بأبي نواس[2]. وقد يأتي التعريف به مصدراً بكنيته الأولى (أبي علي) فيقال: (وهو أبو علي الحسن بن هانىء بن الصباح مولى الجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان)[3]. وربما وردت صيغة اسمه مقتصرة على لقبه وكنيته من دون اسمه الصريح فيقال: أبو علي الحكمي[4]. بل قد يكتفي باللقب وحده من غير كنية أو اسم صريح فيرد بصيغة «الحكمي»[5] مما يدل على شهرته بهذا اللقب أو هذه النسبة. والحقيقة أن لقب «الحكمي» يكاد يكون قسيماً مشتركاً بين معظم المصادر التي تعرضت للتعريف بالشاعر: اسمه وأسرته ونسبه ثم الترجمة له. ففي تاريخ بغداد ورد اسم الشاعر على هذه الصورة: (الحسن بن هانىء أبو علي الحكمي)[6]. ومثله في «بخلاء الجاحظ» جاء اسمه هكذا (أبو نواس الحسن بن هانىء الحكمي)[7]. وعند صاحب «وفيات الأعيان»[8] يذكر بعد أن يورد اسمه واسم أبيه وجده أنه (المعروف بأبي نواس الحكمي الشاعر المشهور). ولكن يضيف ما يؤكد أنه يخص بـ«الحكمي» جده لا الشاعر ولا أباه، إذ يقول: (كان جده مولى الجراح بن عبدالله الحكمي).. ولقد كان لولاء جده في اليمن أن نسب إليها، فكان يقال له أبو نواس اليماني كما قيل له «الحكمي» ولكني لاحظت أن نسبته إلى اليمن كانت من قبل هاجيه، سخرية منه وتندراً عليه كما فعلت «عنان» جارية الناطفي حيث تقول في هجائه:

أبـو النّـواسِ اليمـانِي وأمّـه جُلُّبـانِ[9]

«وأبو النواس» بالتعريف مخالف لصحيح اسمه المتعارف عليه من الاكتفاء به دون «الـ» التعريف ودون التشديد. حتى هذه النسبة لم يعترف له بها لذلك زجر عن انتمائه اليمني من قبل خال المهدي أبي زيد بن منصور الحميري قائلاً له «أنت خوزي»[10] كما جرى على لسانه تلقيبه

---

(١) البخلاء للجاحظ ص٢٢٧.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٣١م) ٧/٤٣٦.

(٣) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ١/٢٤٢.

(٥) البيان والتبيين للجاحظ ٣/٢٤٧، والحيوان ٧/١٦٤.

(٦) الحيوان ٧/٤٣٦.

(٧) ص٢٢٧.

(٨) ٢/٩٥.

(٩) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣٤.

(١٠) المصدر السابق ١/٣٦.

نفسه بـ«نواسي» من غير الصدر أبو «خلوا من «الـ» التعريف الواردة في بيت «عنان» السابق مع صيغة النسبة بالياء المشددة وذلك حيث يقول:

يا نُوَاسِيُّ تفكَّرْ وتعَزَّ وتصَبَّره[1]

وهكذا فهو مرة يماني لولاء أحد أجداده في اليمن، وهو خوزي لأن أُمه من الأهواز، ولذلك، فإذا نسب إلى البصرة حيث نشأ وترعرع وتعلم فلا غرابة فيه وليس عليه من بأس إن يلقب بالبصري، ولكن على شريطة أن يرافق لقبه «البصري» قرينة أخرى تعرف به كأن تكون اسمه أو إحدى كنيته. لأن لقب البصري لا خصوصية فيه لأبي نواس، هذا إلى أن أعلام البصرة وشهرتهم بالمدينة أو شهرتها بهم ممن ليسوا أقل من شاعرنا حقاً في الانتماء إلى المدينة العظيمة، هم من الكثرة والامتياز وعلو الكعب بحيث لا يعطيه الاقتصار على هذا اللقب «البصري» عن غيره من أعلام البصرة أية ميزة. ففي «البداية والنهاية» (ويقال له أبو نواس البصري)[2]، ولكن «ابن قيتية» ينسبه إلى البصرة نسباً عادياً لا خصوصية فيه ولا تفرد يقول: (وكان أبو نواس بصرياً)[3]. بصري كأي بصري آخر بحيث لا يحق له التفرد بحمل اسمها مع الشهرة في صيغة لقب أو اسم شهرة. أما صاحب «الأغاني» ففي حديث عن سفيان بن عيينه نسبه إلى البصرة من خلال أهل البصرة أنفسهم وذلك حيث يقول: (لقد أحسن بصريكم هذا أبو نواس)[4].

بل إن الذي يثير الدهشة أن نرى المأمون ينسب البصرة بكل عظمتها وتاريخها الحافل إلى الشاعر بكنيته «أبي علي» ولقبه الحكمي فهي «دار أبي علي حكميكم..» جاء في طبقات ابن المعتز[5]: (قال محمد بن عباد المهلبي: قال لي المأمون، وقد قدمت من البصرة، كيف خلفت ظريف مصركم، ومن بدار أبي علي حكميكم - يعني أبا نواس - قلت: ومن يعني أمير المؤمنين! قال: مَنْ أنت عارف به ذاك الحسين بن الضحاك الشاعر).. وواضح أن سؤال المأمون كان بعد وفاة أبي نواس لأنه عاد إلى بغداد بعد أن أديل من سلطان أخيه الأمين، وهكذا ظل أبو نواس بصرياً دون أن تغني عنه إقامته الطويلة ببغداد شيئاً. فلم أقع فيما بين يدي من مصادر ومراجع على خبر

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٣/١٩٩.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٠/٢٢٧.

(٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ٢/٧٧١.

(٤) الأغاني ٢٠/٦٨ (ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٥) طبقات ابن المعتز ص٢٦٨، ٢٦٩، وأيضاً: زهر الآداب، للحصري ١/٢٤٢.

أو رواية تنسبه إلى بغداد أو تطلق عليه لقب «بغدادي» في حين تنقل لنا بعض الأخبار عن نسبته إلى الكوفة[1] في معرض السؤال عن شعرائها. لكن البصرة ظلت المدينة التي استحوذت على «بلديته وموطنيته ونسبته».

أما عن ألقابه التي تمت إلى أدبه ومواهبه الفكرية أو صفاته الخلقية والنفسية فكثيرة كما ذكرنا. أول ما تمتاز به أنها لم تكن لوازم ثابتة بصفات محددة لا خروج عليها ولا شذوذ عنها وأهميتها أنها تصور نظرات الناس إلى الشاعر واعتبارهم إياه في مجال النشاط الذي رأوه فيه عند إضفاء هذا اللقب أو ذلك النعت عليه. ولذلك كنت تجد هذه الألقاب والنعوت تتمايز أو تختلف وقد تتفق تبعاً للحال الذي يكون فيه الشاعر بحيث سمح بأن يحمل النشاط الأدبي على صفة خلقية أو تحمل الصفة الخلقية مضموناً أدبياً.

من أجل هذا، أحببت أن أنبه إلى أن هذه الألقاب لم تكن متفقاً عليها ـ مثلما نعرف من اتفاق لزوم اللقب لصاحبه ـ بل هي أقرب إلى الصفات العوارض منها إلى الألقاب اللوازم وهي في كثير منها ابنة ساعتها أو اللحظة المواتية؛ السبب الذي يجعل التمييز بين الألقاب والنعوت المتصلة بمواهب الشاعر الأدبية والفكرية وبين الألقاب والنعوت المتصلة بالمزايا والشمائل الخلقية أمراً عسيراً. يقول ابن منظور عنه (شاعر مصره ورئيس عصره)[2]، رئيس مصره كما هو واضح، مرادف لـ: شاعر عصره. وكذلك هو (الأديب شاعر العراق)[3]، أو هو (الشاعر المشهور حامل لواء الشعر في زمانه) ويزيدنا صاحب «النجوم الزاهرة» به علماً ليقول: (كان إماماً عالماً فاضلاً غلب عليه الشعر)[4]، وأما أنه عالم فمما لا شك فيه بل هو غزير العلوم[5]. وأما أنه فاضل فمسألة فيها نظر؟ فهذا هو الخلط بين المواهب الأدبية والفكرية وبين الشمائل الخلقية والصفات النفسية حتى صاحب «الوساطة» الذي ربما كان أول ناقد عربي فيما نعلم يفصل بين الفن (الأدب) وبين الدين، رأيناه يضفي على شاعرنا من الألقاب ما يوحي بالخلط بينهما أيضاً حيث يقول: (وهو الشيخ المقدم والإمام المفضل)[6]. ولكن الواضح أنه حتى عصر أبي نواس لم يكن هناك تصور واضح دقيق لدى

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٧٢.

(٢) نفسه ١/١١٨.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، ص٣٤٥.

(٤) النجوم الزاهرة، ٢/١٥٦.

(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣٦.

(٦) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، ص٥٥.

النقاد، للفصل ما بين الفن والدين أو بين الشعر والأخلاق السبب الذي أدى إلى هذا الخلط بينهما ففي «تاريخ بغداد» أن «شعبة» لقي أبا نواس فقال له: يا حسن حدثنا من ظرفك، فقال:

حدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر. .) المقطوعة

(فقال له شعبة: إنك لجميل الأخلاق وإني لأرجو لك)[1].

وواضح أن جودة الشعر أو طرافته انسحبت على شمائل الشاعر الخلقية لتجعله جميل الأخلاق، وقد ورد هذا الخبر والشعر في «أخبار أبي نواس»[2] لأبي هفان، بصورة مقاربة. (قال شعبة لأبي نواس: أنشدني أحسن طرائفك فأنشده:

حدّثنا الخفافُ عن وائلٍ وخالدُ الحذّاءُ عن جَابرِ. .

فقال له شعبة: أحسنت والله يا فتى وما يؤيسني مجونك من صلاحك ما اجتنبت من الكبائر. إنك لظريف أديب فلا تشن أدبك بالفسق والفواحش وأرجو مغفرة الله لك مع حسن اعتدالك وكمال طبعك).

أما ابن المعتز «في طبقاته» فيعترف بتناقض علم أبي نواس وأدبه مع سوء خلقه ومجونه. (وكان مع كثرة أدبه وعلمه خليعاً ماجناً وفتى شاطراً)[3]. ثم (وهو في جميع ذلك حلو ظريف وكان يسحر الناس لظرفه وحلاوته وكثرة ملحه. . .)

ولعل أبرز ما كان يلقب به أبو نواس: لقبا الظريف والشاطر لأنهما أدل على مجمع صفاته النفسية والخلقية إلى مواهبه الأدبية والعلمية وقد يختلط الظريف بـ«الشاعر» في الحكم على شاعرنا أي اللقبين أدل وأصدق في التعبير. ففي «أخبار أبي نواس» لأبي هفان جاء على لسان سفيان بن عيينه لابن مناذر (ظريفكم هذا أشعر الناس) فيجيبه ابن مناذر إجابة مَنْ لم يخطىء المقصود: (كأنك عنيت أبا نواس؟ قال: نعم، قال: وفيم استظرفته؟ قال: في جميع شعره وفي هذه الأبيات خاصة)[4].

وواضح أن الظرف منصب على شعر الشاعر، لا على سلوكه، ولكن الأصل في الظرف أنه سلوك شخصي وهو لغة معناه الكياسة ويكون (في اللسان. أو هو حسن الوجه والهيئة أو يكون في الوجه واللسان. أو البراعة وذكاء القلب أو الحذق، ولا يوصف به إلا الفتيان الازوال والفتيات

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ٧/٤٣٩.
(٢) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص٩٧، ٩٨.
(٣) طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص١٩٥.
(٤) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص٢٢.

الزولات. .)[1]. ولا يكون الظريف ظريفاً حتى تجتمع فيه خصال أربع: الفصاحة والبلاغة والعفة والنزاهة[2].

وفي البداية ارتبط الظرف بالزندقة، حتى كانت صفة زنديق من دلالات ظرف صاحبها[3]. ولـذلـك كان يقال أظرف من زنديق والمقصود به يحيى بن زياد الحارثي[4]. ومن ذلك ما يروى للشاعر محمد بن مناذر في محمد بن زياد الخاركي الذي كان يظهر الزندقة تظارفاً[5].

لستَ بزنـديقٍ ولـكـنّـمـا أردتَ أن تُوسَـمَ بالـظَّرْفِ[6]

بل إن أبـا نواس يعتـرف على نفسـه بالـظرف مفسراً في الوقت نفسه معناه فقد دخل على يحيى بن خالد فقال له يحيى: أنشدني بعض ما قلت فأنشده:

إنّي أنـا الـرجـلُ الحكيمُ بطبعـه ويزيدُ في عِلمي حكايةُ من حَكَى[7]
أتـتـبـعُ الـظرفـاءَ أكـتـبُ عنهمُ كيمـا أُحَـدِّثَ من أُحِبُّ فيضحكَـا

أما «الشاطر» فمن الألفاظ المولدة ومعناه «الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثا»[8] والشُطّار هم إحدى الفئـات من النـاس التي ظهرت إبّان العصر العباسي: منهم الشُطّار والعيارون والظرفاء والفتيان واللعابون. . . إلخ. واسم الشُطّار في المغرب: العقورة. ويسميهم «ابن بطوطة» الفتاك[9] وكانوا يعيشون على السلب واللصوصية والتحايل على الناس. . إلخ. ويحكى عن أبي نواس لما انتوى الخروج إلى مصر للقاء الخصيب اتخذ زي الشُطّار وتقطيعهم بطرة قد صفقها وكمين واسعين، وذيل مجرور ونعل مطبق. . فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به. .)[10].

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط/ (ظرف).

(٢) الموشى، للوشاء، ص٦٦.

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي، للشكعة، ص١٧٣.

(٤) أمالي المرتضى، ١/١٤٣.

(٥) الأغاني للأصفهاني، ١٨/١١٥ ط الثقافة.

(٦) الأغاني ١٨/١٨٢ (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٧) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٧.

(٨) لسان العرب (الشاطر).

(٩) الشطار والعيارون، لشكري محمود أحمد، مجلة الرسالة: العدد ٧٢١ ص١٠٠٨ وما بعدها، بتاريخ ١٩٤٧/٩/١٥.

(١٠) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٢٣٥.

وبالشُّطّار استعان الأمين حين حوصرت بغداد فنظمهم نظام الجند وكانوا شجعاناً غاية الشجاعة يحارب الواحد منهم عريان من غير دثار:

واحدٌ منهمُ يَشُدُّ على ألفينِ عُريانٌ ما لَهُ مِنْ إزَارِ[1]

هذا ويكاد لقبا «الشاطر والظريف» يشيعان في معظم المصادر القديمة التي ترجمت للشاعر والتعريف به ففي «ابن منظور» كان الأصمعي يلقب أبا نواس بالشاطر في قوله:

(يعجبني من شعر الشاطر بيت واحد..)[2] كأنما لقب الشاطر غالب على الشاعر. وأيضاً جاء قوله: (كان العباس بن محمد يتشوق إلى أبي نواس ويميل إليه فلما رآه وسمع منه ورأى ظرفه..)[3] بل لقد أصبح لقب «الظَريف» مثل لقب الشاطر» مقدماً على صفة الشاعر. ففي «تاريخ بغداد» جاء على لسان سفيان بن عيينه يخاطب ابن مناذر (يا أبا عبدالله ظريفكم هذا أشعر الناس...)[4].

وأيضاً في «أخبار أبي نواس» لأبي هفان، قدم الظريف على الأديب وذلك حيث يقول شعبة لأبي نواس وقد استمع إليه مبدياً إعجابه بشعره: (إنك لظريف أديب,,)[5] بل لقد وصف ابن منظور شعره بالظرف حيث يقول: (ومن ظريف ما يروى له..)[6].

ولكن لقَبَيْ «الظريف» و«الشاطر» ليسا مترادفين لمعنى أو مضمون واحد، وإنما هما لقبان كانا يطلقان عليه في المناسبات المختلفة من نشاطاته الأدبية والاجتماعية العريضة. على أن لقب «الظريف» أقرب إلى القبول والإعجاب لأن لقب «الشاطر» عادة ما يكون مصحوباً بالخروج على مألوف المجتمع من عادات وأعراف وتقاليد. فالشاطر معناه (الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثا)[7]، ويخيل إليَّ أن هذا اللقب «الشاطر» من أقدم ما أطلق عليه من ألقاب، لعله يعود إلى عهده في سوق العطارين بالبصرة أو وهو في «الكتاب» في مستهل حياته الأدبية.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٤٥٨، الطبعة الثانية.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥٦.

(٣) نفسه ٢/٢٤.

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ٧/٤٣٧.

(٥) ص٩٨.

(٦) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٦١.

(٧) لسان العرب (الشاطر).

وعن أبي إسحق (قول الناس فلان شاطر معناه إنه أخذ في نحو غير الاستواء. ولذلك قيل له شاطر لأنه يتباعد عن الاستواء)[1] بينما يقترن لقب الظريف بكل ما هو مقبول ومستحب من الشخص وسلوكه، كان لقب الشاطر يقترن بالأوصاف المستنكرة من السلوك أو الشخص، ولذلك كنت تجد لقب «ظريف» مقروناً بنعت أديب كقوله (ظريف أديب)[2] أو بنعت حاذق حكيم فهو ظريف حاذق حكيم[3] أو ظريف كامل[4]. أما ما كان يقترن بلقب «الشاطر» فالأوصاف والنعوت التي تفيد الخروج على الآداب العامة والأعراف والتقاليد، فهذا ابن المعتز في «طبقاته» يقول في وصف شاعرنا: (وكان مع كثرة أدبه وعلمه خليعاً ماجناً وفتى شاطراً)[5]، كأنما الشاطر والخليع والماجن لا تتفق مع كثرة الأدب والعلم، في حين كان الظرف مرادفاً، كما هو واضح للحلاوة وكثرة الملح التي بها كان أبو نواس يسحر الناس.

(وكان يسحر الناس لظرفه وحلاوته وكثرة ملحه)[6].

وفي موضع آخر نرى «ابن المعتز» يجعل للقب «الشاطر» مترادفات أخرى أو يقرنه بصفات تفسر معنى هذا اللقب لشخص شاعرنا. فهو شاطر وهو ماجن خليع متهتك ألوف لحانات الخمارين[7]، ولذلك كان أيضاً هو الخبيث[8] أو الخبيث الماجن المتهتك[9] أو الماجن الخليع[10].

أما «العيار» فلعله أقرب النعوت أو الألقاب التي رُمي بها أبو نواس من لقب «الشاطر» لغة وموضوعاً. ومعنى «العيار» لغة كثير المجيء والذهاب في الأرض. وحكى الفراء: رجل عيار إذا كان كثير التطواف والحركة ذكياً[11]. والعرب تذم وتمدح بالعيار فيقال غلام عيار نشيط في المعاصي. وغلام عيار نشيط في طاعة الله. وكذلك الشاطر في معناه المولد،

---

(١) لسان العرب (الشاطر).
(٢) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص٩٨، ١١١.
(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٢١.
(٤) المصدر السابق نفسه ٢/٢٤.
(٥) طبقات ابن المعتز ص١٩٥.
(٦) نفسه ص١٩٥.
(٧) نفسه ص٢١٦.
(٨) تاريخ بغداد ٧/٤٣٧.
(٩) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هاني ـ مخطوط ـ ورقة: ٤.
(١٠) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٤/٢٧٩.
(١١) اللسان والقاموس المحيط (العيار).

لأنه من أعيا الناس خبثاً وحيلة.

وبالنظر إلى سلوك شاعرنا المنحرف وأخلاقه المريبة فلعل أفحش ما رمي به لفظان مضطرون إلى ذكرهما على ما فيهما من فحش وإثم هما: اللوطيّ والزاني[1]، لأنه عرف بهما فيما تروي الكتب القديمة حتى كانوا يخوفون به الغلمان[2]. وحتى أصبح الكثير من فضلاء القوم يتجنب مجالسته أو منادمته رغم اعترافهم له بالظرف والأدب وسعة العلم، بل لقد أطلق عليه زميله ومعاصره الشاعر «أبو العتاهية» لقب العاهر حين سئل عن أشعر الناس فأجاب (الشاب العاهر أبو نواس..)[3].

وهناك لقبان آخران شاعا عن أبي نواس وكانا سبب شقائه وسجنه المرة تلو المرة، وهما لقبا زنديق وكافر لاتصالهما بالعقيدة ولأن الدولة العباسية دأبت منذ الخليفة أبي جعفر المنصور على تعقب الزنادقة والملحدين، وسوف نرى في مكانه من هذا البحث مدى صحة ما رمي به أبو نواس من زندقة، وآثار ذلك في شعره، الغزل والخمريات خاصة، وكيف أمكنه في كل مرة رمي فيها بالزندقة أو الكفر الخلاص من التهمة والنجاة بدمه ليموت أخيراً حتف أنفه لا قتلاً ولا صلباً كما كان يموت الزنادقة..!

ـ صفاتـــه:

أول ما يلقانا من صفات أبي نواس المنقولة من مختلف المصادر، تميزه بجمال أنثوي خلافاً لما هو معهود من الجمال في الرجال عند العرب[4]. جاء في ابن منظور (وكان حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم، وكان في رأسه سماحة وتسفيط وكان الثغ بالراء يجعلها غيناً، وكان نحيفاً وفي حلقه بحة لا تفارقه)[5]. وأيضاً أن والبة (رأى أبا نواس فاستحلى قده وأعجب بظرفه)[6]. وكذلك، والخبر عن والبة (فلما كشف عنه ورأى حسن بدنه فلم يتمالك أن قبل...)[7] أو(فلما اعتنزه رأى بدناً حسناً وكان جميل الوجه حسن البدن فأطار عقله ولم يتمالك..)[8]. ويراه أبو الشماخ فينوه بحسن وجهه على حد ما يذكر ابن منظور أيضاً: (قلت لوالبة وكنت أرى أبا نواس

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٦٢.
(٢) المصدر السابق نفسه ٢/٥٠.
(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٤/٢٥٨.
(٤) البيان والتبيين، ١/١٢٠، ١٢١.
(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٦.
(٦) نفسه ١/٨.
(٧) نفسه ١/٩.
(٨) نفسه ١/١٢.

عنده وهو غلام حسن الوجه . .)[1]. وتصادف خروجه مع جماعة من الأدباء وقد التمسوا مؤاجراً يقوم على شأنهم، والكلام لأبي الأصبع أحدهم: (. . . فأتينا باب أبي عمرو بن العلاء فإذا نحن بغلام من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم قداً وهو يتثنى)[2]. أي يختال ويتتايه بجماله فعل الأنثى التي تدل بحسنها تيهاً وغروراً. وهي صفة أخرى في الشاعر تقصيه عن عالم الرجولة وتدنيه من دنيا الأنوثة، بل لقد ظل أبو نواس يفاخر بجماله هذا حتى بعد أن تقدمت به السن حيث يقول مخاطباً غلاماً من أهل مصر اسمه بدر:

تَتِيهُ علينا أن رُزِقْتَ ملاحةً ... فَمهْلاً علينا بعضَ تِيهِكَ يا بَدْرُ
فقد طالَ ما كُنّا مِلاحاً وربَّما ... صَدَدْنَا وتِهْنا ثُم غيّرنا الدَّهْرُ
. . . . . [3]

وكان ذلك دأبه مع لداته من الغلمان ممن كانوا يسيرون مثل سيرته في الحياة[4].

ولا يكاد مرجع من الكتب القديمة يخلو من الإشارة إلى ما كان يمتاز به أبو نواس من جمال وفتنة، كأنما جماله هو مفتاح شخصيته الإنسانية وشخصيته الفنية أيضاً. فهذا ينوه بملاحته وصباحته . . (بلغني أن أبا نواس وهو في الكتاب وكان مليحاً صبيحاً)[5] . وهذا أبو نواس نفسه يروي ما وقع له مع أعرابي في سوق المربد ومعروف أن الأعراب بل العرب بصفة عامة لم يعرفوا الشذوذ قبل العصر العباسي، فقد أخذ الأعرابي يطيل النظر إلى أبي نواس وحين سأله عن السر في إطالة النظر إليه أجاب الأعرابي . . . . (أتفتن البشر وتمنعهم النظر . .)[6] حتى إذا أنشده أبو نواس بعض الشعر أجاب الأعرابي مرة أخرى معرباً عن إعجابه بجمال أبي نواس . . . (فقال هذه صورتك فداك أبي وأمي . . .) وأعطاه بعض الدراهم.

وواضح أن جمال أبي نواس شد إليه هذا الأعرابي فكيف بشاعر ماجن مثل والبة. يقول ابن المعتز: (وكان أبو نواس وضيئاً صبيحاً فعشقه والبة وأعجب به . .)[7] على أن أدق وصف لما كان

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور، ١٢/١ .

(٢) نفسه ٤٩/١ .

(٣) نفسه ١٠/١ .

(٤) نفسه ١٠/١ .

(٥) طبقات ابن المعتز، ص٢٠٨ .

(٦) الفرج والتهاني في أخبار الحسن بن هاني (مخطوط) ورقة ٩ .

(٧) طبقات ابن المعتز، ص١٩٤ .

يتحلى به أبو نواس من جمال صورة وجاذبية هو ما جاء على لسان الجماز أحد رواته وتلامذته حيث يقول: (كان أبو نواس أظرف الناس منطقاً وأكثرهم أدباً وأقدرهم على كلام وأحضرهم خاطراً وأسرعهم جواباً. كان أبيض اللون حسن الوجه مليح النغم والإشارة، وكان أحسن الناس كفاً واطراقاً وقيل كان أبو نواس مخفف اللحم ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير أشقر أنزع[1] مسنون الوجه قايم الأنف حسن العينين والمضحك حلو الصورة مقبولها كثير الحياء. وبلغ من فرط حيائه أنه كان إذا دخل درب بني نويبخت وهم جلوس لم يستقبل جملتهم ودخل عليهم من غير موضع مستقبل حتى يجلس معهم وكان فصيح اللسان عذب الألفاظ حلو الشمايل كثير النوادر أعلم الناس كيف تكلمت العرب، راوية للأشعار، عالماً بأخبار الناس كأن كلامه شعر غير موزون[2].

وفي رواية عن محمد بن المؤمل قال: . .(إني لفي مسجد الكوفة إذا أنا بحلقة قد التأمت فجئت لأنظر إليها فإذا أنا بفتى شاب عليه خزوز يجرها وهو ينشد شعراً فلم أدر أوجهه أحسن أم ثيابه أم منطقه)[3].

وواضح أن جملة ما انتهى إلينا من صفات أبي نواس الجمالية تتناقض تماماً مع مفهوم الجمال في الرجال عند العرب كما أشرنا.

وهكذا وجد الكُتّاب في صفات أبي نواس الخلقية مسوغاً قوياً لشذوذه، إن لم يكن علة رئيسية فيه، هذا إلى جملة من العلل الأخرى من ظروفه الطبيعية والأسرية والاجتماعية فهو مرة كائن مريض لم تكتمل مراحل نموه الطبيعي فعلته إذن باثولوجية[4]، أو إن العلة تكمن في ظروف نشأته أو نوع تربيته وأحوال عصره[5]، وكذلك كانت صفات أبي نواس الجمالية عند العقاد مدخله إلى إضفاء صفة النرجسية على الشاعر إلى جانب مدخل البيت وبيئة المجتمع[6].

يقول العقاد: (. . . وتكاد تتمثل لنا من هذه الملامح صورة النرجسية للحس والعيان قبل النرجسية النفسية التي يدور عليها بحث علماء الأمراض النفسية فالبياض والرقة والنعومة والملاحة والشعر المتهدل أشبه ما تكون بملامح الفتى نرجس الذي حنا على الجدول فاستحال نرجسة

---

(١) أنزع: موضع النزع من الرأس هو انحسار الشعر من جانبي الجبهة وهو أنزع.

(٢) الفرج والتهاني في أخبار الحسن بن هاني، مخطوط، لمؤلف مجهول، الورقة: ٧.

(٣) نفسه والورقة نفسها.

(٤) نفسية أبي نواس، لمحمد النهريهي، ص٧٧.

(٥) نفسه ص٨٥.

(٦) أبو نواس، للعقاد، ص٨٩، ٩٠.

واتخذه الاسطوريون اليونان نموذجاً للجمال المفتون بمحاسنه)[1].

هذا مع دلالات التكوين الأخرى من لثغة وبحة ومعها الضفيرة المرسلة ودلالتها النفسية على معاملة الصبي مثل البنات حتى يصل العقاد أخيراً إلى الحكم على أبي نواس (حكم النساء والخصيان)[2].

والحقيقة أن ما رمى به أبو نواس من شذوذ جنسي طالباً كان أم مطلوباً ومن عقدة أوديب[3] بابتعاده عن النساء وضيقه بأمه ومن عقدة هاملت[4] في غيرته على أمه، ونرجسية من هيامه بحب نفسه.. كل هذه العوارض ما كان منها يتصل بالنفس أو الجسم وكان السبب فيه علة باثولوجية أو نشأة بيئية أو سبباً عاماً، من ظروف العصر والمجتمع فإننا ونحن في مجال الحديث عمّا رمى به أبو نواس من أدواء لا نستطيع أن نقول أولاً أن تلك الصفات تقوم وحدها دليلاً مقنعاً على شذوذه أو علة فيه... أقول وحدها بعيداً عن ظروفه الأخرى. ربما تكون هذه الصفات عوامل مساعدة في ظروف بعينها إذا اقترنت بظروف أخرى بطل مفعولها وانعدم تأثيرها السبب الذي يجعلني أرى أن الكُتّاب الذين تحدثوا عن شذوذ أبي نواس اختصوه من دون عصره وجيله بهذا الشذوذ وراحوا يلتمسون له العلة تلو العلة في الكشف عن هذا الشذوذ، مما يستحيل والحالة هذه أن نطبق عليه[5] النظريات النفسية، فليس هو الأولى بهذه النظريات من بشار وحمّاد عجرد والخليع في وصف الخمر مثلاً وعبادتها[6] وتحليل الغدد وفحص الأحياء غير تحليل الكلام والأخبار[7]. ومتى كان الجمال من أسباب الشذوذ أو إطالة الشعر الذي ربما كان المقصود به دفعاً لأعين الحُساد عن الصبيان خاصة. ثم أوليست بحة الصوت لعلة مرضية عارضة لا دخل لها في التكوين، أما اللثغة في النطق. (وكان الثغ على الراء فيجعلها غيناً إذا أراد أن يقول جعفر قال جعفغ وهذه اللثغة كثيرة بالبصرة لا يخلو من العشرة اثنان أن يلثغوا عليها)[8]

وأما السماحة في الرأس والتسفيط أي رأسه كالسفط فبسبب ذلك كان لا ينزع العمامة عن رأسه لهذا العيب[9].

---

(١) أبو نواس، للعقاد، ص٩٢.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٩٤.

(٣) حديث الأربعاء ٢/٢٢٥.

(٤) نفسية أبي نواس، لمحمد النويهي، ص٨٠.

(٥) حديث الأربعاء ٢/٢٢٥.

(٦) خصام ونقد ص٢٣٢.

(٧) المصدر السابق نفسه ص٢٣٩.

(٨) الفرج والتهاني، الورقة: ٧.

(٩) أعيان الشيعة، لمحسن الأمين، ٢٤/١١.

وما رأي النفسانيين في البدو الذين يطيلون شعورهم وفي الشباب من الجيل المعاصر فهل حكم هؤلاء حكم النساء والخصيان؟ أما الجمال فإنه من الصفات الظاهرة في أماديح العرب خاصة في عصر أبي نواس، ولو كان مما يعاب به لما أضفاه الشعراء على ممدوحيهم.

وهكذا ونحن نتحدث عن صفات أبي نواس لا نريد أن نتجاوزها إلى ما رُميَ به من علل وخروج على المألوف لنتخذ منها علة في علة وإنما مرد ذلك كله إلى مجمل ما خضع له الشاعر من مؤثرات شخصية اختص بها وحده في مسيرة حياته ربما ساقته إليها المصادفة أو الزمرة التي انخرط في سلكها من رفقاء سوء وعشراء شذوذ ومن مؤثرات عامة احتوته في جملة من احتوت من أبناء جيله وعصره وأخيراً فإن شعره الصحيح هو الوثيقة الوحيدة أو الأصح في كل ما عرضنا له من حياة شاعرنا وأخلاقياته.

ـ أُسرتــه:

الأُسرة هي المهد الذي ينمو فيه الإنسان ويترعرع. وعلماء النفس يحلون الأُسرة عادة مكان الصدارة فيما تخلفه من آثار في الأبناء[1]. ومعنى الأُسرة «لغة» الدرع الحصينة. ودرع الرجل، أي أُسرته، هم عشيرته ورهطه الادنون لأنه يتقوى بهم[2].

أما عن أُسرة أبي نواس فالوالد هاني أو هني، ليس لدينا دليل على أنه كان يتمتع بأية مكانة اجتماعية مرموقة ترفع من شأن ابنه أو ابنائه الاخرين. وأنه ليس له ولا لجلبان أم أبي نواس أب يعرف[3]. فقد كان هاني جندياً في جيش مروان بن محمد المرابط في الأهواز[4]. وبعد سقوط دولة بني أمية وجدناه يمتهن جملة من الحرف ليس من بينها مهنة أو صناعة تدل على وجاهة أو خطر، فهو مرة يصطنع صناعة زوجته من حياكة وتطريز[5]. وصناعة الإخراج، كما قيل إنه عمل راعي غنم[6]. على أن أغرب ما أُلصق به من مهن كانت صناعة الكتابة ليس بمعناها الأدبي أو الفني، لأني أكاد أرجح أن هانئاً كان أُمياً أو شبيهاً بالأمي، وإنما بمعناها العملي: (كان أبو الحسن بن هانىء كاتباً لمسعود المادراني على ديوان الخراج وكان اسمه هني)[7]. أما من هو مسعود هذا فنحن

---

(١) الصحة النفسية (دراسة في بسيكولوجية التكيف) لنعيم الرفاعي، ص٣٨٣ وما بعدها، ط. الثانية ـ دمشق ١٩٦٩م.

(٢) لسان العرب (الأسرة).

(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/ ٣٤.

(٤) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٠/ ٢٢٧.

(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/ ١٧.

(٦) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٨.

(٧) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/ ٤.

لا نعرف عنه شيئاً. على أنه قد يصعب أن نعرف أي عمل آثر هذا الدمشقي بعد انحلال جند مروان بن محمد وانتقال الخلافة إلى بني العباس. ولكن الظاهر أن ابنه الحسن لم ينعم برعايته طويلاً لندرة الأخبار عنه، لذلك فليس من المعقول أن يضع لابنه الحسن مؤدباً هو الناشىء يرعاه ويعلمه[1]. كما كان يفعل الأباء الموسرون حينئذ، مما يتناقض مع ما هو معروف عن اضطرار ابنه الحسن للعمل بالعطارة وهو صغير طلباً للرزق، وذلك بعد انصراف أُمه بعد طلاقها من أبيه أو وفاته وزواجها ممن يدعى العباس، إلى جملة من الحرف شريفة وغير شريفة. وفي الوقت الذي تجمع فيه الأخبار على جمال الأُم، نرى هانئاً يهجى لقبحه فقد كان آدم شديد الأدمة، حتى وصف بأنه جون، وزعم بعض الكُتّاب أنه زنجي[2] يقول أبان في هجاء أبي نواس[3]:

هانـيءُ الـجـوْنُ أبـوهُ زادهُ الـلّـهُ هوانَـا
سائِـل الـعـبـاسَ واسـمـعْ فيه من أُمِّـك شَأْنَـا

كما هجي هاني بأنه وغد وذلك في معرض هجاء جلبان أُم أبي نواس على لسان الحكم بن قنبر[4]:

وبـالأهـوازِ أُمُّـكَ فاذكـرنْهَـا مَطِيَّةَ كلِّ عِلْجٍ فِي كُنَـاسِ
وهَـنّـي من الإخـوان وغـد وراعي البهم في كنفي هساس

كما رمى ابان اللاحقي هانئاً وجلبان بأنهما مجهولا الأب:

أبـو نواس بن هانـى وأُمُّـه جُلُبَـانِ[5]
والـنـاسُ افـطَنُ شيءٍ إلـى دقـيقِ الـمـعـانِـي
إن زِدتُ حَرْفَـاً على ذا يا صاحِ فاقـطَعْ لِسَـانِـي

وليس من شك في أن انصراف الأُم بعد زواجها، عن الاهتمام بولدها، إلى شؤونها الخاصة، جعل هذا الولد عرضة للفساد في بلد مثل البصرة، كانت تغص بمختلف العناصر البشرية المتباينة المشارب والموارد هذا إلى أنها كانت في مثل ضعة أبيه، مجهولة النسب، أجيرة أو في حكم الخادمة، وهكذا فلم تكن موضع اعتزاز ابنها الحسن، بسبب ما قيل من أنها كانت أعجمية[6]،

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٧.
(٢) الحسن بن هانىء، لعباس العقاد، ص٩٧.
(٣) كتاب الأوراق (أخبار الشعراء) للصولي، ص١٢.
(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣١.
(٥) المصدر السابق نفسه ١/٣٣.
(٦) المصدر السابق نفسه ١/٣٢.

وكان لها بيت تناده فيه الغواني، أي تجمعهن[1] ولذلك كان أبو نواس يخفي اسمها لئلا يهجى بها[2] حتى أن بعض الكُتّاب يجعلها السبب في أزماته النفسية ليتخذ من المجون والفسق مهرباً له من آلامه وهمومه [3] ومع هذا فلهذه الأم فضل في تعليمه لسانها الفارسي ليصله بالثقافة والآداب الفارسية[4].

أما عن إخوان أبي نواس فلم نتعرف إلّا على ثلاثة منهم: أخوان وأخت ولا نعرف إن كانت عبارة ابن منظور عن زواج أبيه من أمه (فتزوج بامرأة تسمى جلبان وأولدها عدة أولاد منهم أبو نواس وأبو معاذ واسمه أحمد..)[5] وعبارة ابن المعتز (فتزوج جلبان فأولدها عدة منهم أبو نواس وأخواه أبـو محمد وأبو معاذ)[6] تعني أكثر من ثلاثة؟ وإذن فأبو محمد هو إسماعيل الذي ورد ذكره في الطبري[7] (وذكر عن إبراهيم بن إسماعيل بن هانىء ابن أخي أبي نواس قال حدثني أبي فقال: هجا عمك أبو نواس مضر في قصيدته التي يقول فيها...).

أما الاخت فلم يسمها أحد من الكُتّاب وكانت[8] (عند فرج القصار، وهو عبد كان لأحمد بن عصمة الله الباخرزي) هذا في الوقت الذي يذكر ابن منظور أيضاً أنه لم يكن لهاني[9] (ولد ولا خلف غير أبي نواس حتى مات). يتفق هذا مع بيت لأبي نواس يذكر فيه أنه وحيد أمه:

لا تفـجَـعِـي أُمّي بواحـدهـا لن تُخْـلِفـي مثـلي على أُمّي[10]

يقول العقاد تعليقاً على هذا البيت:

(ولا يمنع أنه واحدها ما جاء في ترجمته من سيرة أخيه وأخته فربما كانا أخوين لأبيه إذ كانت أمه قد تطلقت من أبيه وهو غلام صغير ولبث بعد ذلك في كفالة أمه ولا يستبعد أن يكون أبوه قد تزوج قبلها أو بعدها)[11].

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١/٤٧
(٣) العصر العباسي الأول، لشوقي ضيف ص٢٢٦.
(٤) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، ٢/٢٤، ترجمة عبدالحليم النجار.
(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤.
(٦) طبقات ابن المعتز، ص١٩٤.
(٧) الطبري، ٨/٥١٤.
(٨) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥.
(٩) المصدر السابق نفسه، ١/٤.
(١٠) الديوان، ص٣٠٢، ط. الغزالي.
(١١) أبو نواس للعقاد، ص٩٥.

ولعل أبا نواس قصد المجاز، على التأويل، بمعنى أنه لا مثيل له بين أخوانه فهو العلم الفرد خاصة إذا عرفنا ضعة مكانة هؤلاء الإخوة حتى أن بعضهم كان يتعيش بأنه أخ لأبي نواس فكأنهم لا وجود لهم بوجوده إذ لم يكن لواحد منهم مكانة يعتز بها أبو نواس فأخوه أحمد أبو معاذ كان (عطلاً من مذاهب أبي نواس لا يحسن شيئاً إلاّ أنه يتعيش بأنه أخ لأبي نواس)[1]. ولذلك اتجه إلى أن أصبح مؤدب أولاد رجل وضيع هو فرج الرخجي[2]. ويدل على ضعة شأنه ما جاء في ترجمة الشاعر عمرو القصافي من أنه (كان لا يمدح إلاّ وضيعاً مثل فرج الرخجي وطبقته فسقط كثير من شعره)[3].

وفي فرج هذا يقول شاعر أعرابي، وكان قد نظر إلى نبل قصر الرخجي:

لعمْـرُكَ ما طول البنـاء بنـافـعٍ إذا كان فَرْع الـوالـدين قصيرا[4]

كما يضيف «الجهشياري» أن فرجاً هذا كان مملوكاً لحمدونة بنت الرشيد الذي قلده الأهواز ثم عزله لـسوء سيرته واقتطاعه مالاً كثيراً من مال البلد متهماً بالسرقة[5]. كما يذكر الجاحظ في رسالة القواد[6]. أن فرجاً هذا كان خبازاً.

أما عن أخيه إسماعيل أبي محمد، فلا نكاد نعرف عنه إلاّ الخبر الذي ورد في الطبري وأشرنا إليه حول هجاء أبي نواس لمضر.

واضح من هذا العرض لأحوال الأُسرة التي عاش في كنفها أبو نواس أنها لم تكن لتهيء له أمناً نفسياً ولا استقراراً معيشياً، بل على العكس فقد كانت بتكوينها، وضعة مكانتها وفقرها، وسوء سيرتها من الأسباب التي أدت إلى انحرافه، لذلك فإني أشك في أن أبا نواس قد حظي بشيء من الدلال الذي حاول بعض الكُتّاب أن يستنتجوه من بيته: «لا تفجعي أُمي بواحـدها...»، لأن موت الوالد، وزواج الأُم وانصرافها إلى شؤونها الخاصة جعل الفتى الطرير عرضة للفساد والانحراف...!

ـ نسبه وعشيرتـه:

المقصود بهذين اللفظين تحديد انتماء أبي نواس الاجتماعي من خلال نظام العشيرة أو القبيلة الذي ظل معمولاً به إلى عصر متأخر من حياة الدولة الإسلامية، حتى أن الأعاجم

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥.
(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.
(٣) الورقة، للجراح، ص٨.
(٤) الوزراء والكتاب، الجهشياري، ص٢٧١.
(٥) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.
(٦) رسائل الجاحظ، ١/٣٨٦.

أنفسهم وفي مقدمتهم الفرس، كانوا يحاولون انتحال أنساب وأسماء عربية مع إخفاء أصولهم الأعجمية[1]. وهكذا وجدنا أبا نواس يتردد في نسبه بين جملة من الأنساب أولها، كونه، مولى يمنياً[2]. مع اختلاف حول اسم المولى السيد الذي يعود إليه ولاؤه فأبو هفان[3] يجعل جد أبي نواس الصباح مولى الجراح بن عبدالله الحكمي، في حين يجعل «ابن خلكان»[4] جد الشاعر هو عبد الأول، أما ابن قتيبة، فيجعل الولاء لأبي الحسن هانىء ومولاه هو الحكم بن سعد العشيرة[5]. وهذا النسب بالولاء هو أعرف وأشهر ولاء أو نسب عرف به أبو نواس لأنه تكنى به بعد أن كانت كنيته أبا علي. وكان أبو نواس يفاخر بهذا النسب لأنه كان شديد التعصب لليمن حتى لقد استغرق هذا الولاء في اسم أبيه، هانىء الذي هو اسم أحد أبطال اليمن المعدودين، هو هانىء بن مسعود بن بكر، وفي كنية أخيه أبي معاذ، الذي هو اسم لرسول النبي إلى اليمن معاذ بن جبل الخزرجي (اليمني) كما كان أبو نواس يمني الهوى في اختياره لأساتذته إذ أن كثرتهم من اليمانية أو من أصحاب الولاء فيهم: منهم يعقوب الحضرمي، وخلف الأحمر وأبو زيد الأنصاري[6].

وثاني أنسابه كونه عربياً من اليمن بالنسب الصريح، فإن الإخباريين جعلوا ولاءه اليمني المشهور به نسباً صريحاً، لكن ذلك لم يمنع من طلب أبي نواس إلى النسابة هشام بن محمد الكلبي أن يلتمس له نسباً صريحاً في اليمن[7]:

أبا منذر ما بالُ أبواب مَذْحِجٍ ... مُرَجَّمةً دوني وأنْتَ صديقي

فإن تأتني يأتِكْ ثَنسائي وَمِدحتي ... وإن تأبَ لا يُسْدَدْ عليَّ طريقي

وهكذا مضت به شهرة ولائه اليمني (من ولاء العبد لسادته إلى ادعاء ولائهم ثم ادعاء

---

(١) تاريخ الأدب العباسي، لنكلسون، ص٥٢ ترجمة صفاء خلوصي ط. بغداد سنة ١٩٦٧.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٦.

(٣) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩، ١٢١.

(٤) وفيات الأعيان، ٢/٩٥.

(٥) الشعر والشعراء، ص٧٧٠.

(٦) أبو نواس، للعقاد، ص١٠١.

(٧) ديوان أبي نواس، ١/٣٤١، بتحقيق ايفالد فاغنر.

نسبهم)[1]. حتى وضع له النسابون نسباً عربياً يمنياً عادوا به إلى أصول بعيدة لا سبيل إلى التحقق منها[2]. حتى إنهم ارتفعوا بها إلى يعرب بن قحطان ثم إلى نوح عليه السلام[3] . في حين أنهم مختلفون في اسم جده الذي ربطه باليمن بنسب الولاء.

ثالثاً: كونه عربياً من نزار، وهو نسب ادعاه الشاعر لنفسه في سن متأخرة من حياته، وذلك حين قدم إلى بغداد وكان في نحو الثلاثين من عمره أو أكثر. . . يذكر ابن منظور عن أبي موسى نديم أبي نواس قوله: (قدم علينا أبو نواس بغداد، وكان يكنى بأبي فراس)[4] منتسباً إلى الفرزدق، حتى إذا أنكر عليه التميميون ذلك وهجاه الحكم بن قنبر عدل عن كنيته هذه[5]. ويذكر ابن منظور أيضاً أن أول نسب ادعاه أبو نواس هو أنه من ولد عبيدالله بن زياد قاتل مصعب بن الزبير[6].

رابعاً: كونه أعجمياً فارسياً من الخوز[7]. وهو الأكثر شيوعاً وقد أكد له هذا النسب الفارسي أمه الفارسية ومولده بالأهواز، ولأنه لم يثبت له نسب صحيح، ثم جاءت إشادته بالفرس وحضارتهم والزراية على العرب وبداوتهم، لتؤكد له النسب الفارسي، يذكر ابن منظور: (وكان أبو نواس يفضل العجم. . . ويمدحهم ويشتهي أن يذكر مناقبهم وأن يتزيا بزيهم ويظهر للناس أنه منهم)[8]. وأيضاً قوله: (ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم فلذلك قال في العجم ما قال. . .)[9].

خامساً: كونه مجهول النسب، وذلك لعدم ثبوت نسب صحيح له، ولتردده بين مختلف الأنساب مما حدا ببعض الدارسين إلى القول بأنه كان يفعل ذلك لغرض خبيث هو أن يستغرق في هجائه معظم القبائل العربية[10]وهكذا وجدنا الرقاشي بعد أن ينسبه إلى النبط، يخليه من أي نسب[11]:

نَبَطيٌّ فإذا قيلَ لَهُ أنْتَ مَوْلَى حَكَمٍ قال أَجَلْ

. . . . . .

---

(١) أبو نواس، للعقاد، ص١٠١.
(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٣/١.
(٣) تاريخ بغداد، ٤٣٦/٧.
(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢٨/١.
(٥) نفسه، ٣٧/١.
(٦) المصدر السابق نفسه، ٢٣/١.
(٧) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها وص٦، ٣٦.
(٨) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٣٦/٢.
(٩) نفسه ٤٧/١.
(١٠) مجلة «الهلال» ـ أغسطس سنة ١٩٣٦، مقالة الشيخ محمد عرفة: «المناقضة في شعر أبي نواس».
(١١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٤٣/١.

واضعـاً نِسْبتَـهُ حيثُ اشتـهَى فإذا ما رَابَـهُ رَيْبٌ رحَـلْ

ومع هذا ظلت مشكلة النسب عند أبي نواس، لم يستطع أن يفسرها أحد غيره، وذلك حيث يقول[1]:

فإن سَلِمْتُ ومـا قلبي بذِي ثقـةٍ من السَّـلامـةِ لم أسْلَمْ ببغْـذَاذَا
ما شئـت من بلدٍ دانٍ منَـازِهُـهُ لكـنّ فيهِ قبـيلاتٍ وافْـخَـاذَا

فأبو نواس أشد ما كان يؤلمه في عصر المنافرات والمفاخرات بالأنساب والأحساب أنه عطل منها جميعاً، لذلك شوهت تلك المفاخرات والمنافرات جمال بغداد وزينتها، فهب يبحث له عن أنصار، ولسان حاله يعترف بأن من ليس له نصير ذل وهان[2] :

فآرْبـع على نفسِـك فانـظرْ لهَـا فمَـا عداكَ الـمـثَـلُ السَّـائِـرُ
أنـت كمـا قيلَ فيمـا مضَـى قد ذَلّ من ليس لهُ نَاصِـرُ

حتى إذا رجع إلى نفسه ووقع على الحقيقة المرة قال مكابراً الواقع محاولاً التمرد عليه والوقوف في وجه التيار الجارف:

وقَـدْ زادَني تِيهـاً على النَّـاسِ أنني أرَانـيَ أغنـاهـم وإن كنـتُ ذَا فَقْـرِ
ولـو لم أرثْ فخـراً كفـاني صِيَانتِي فِمِي عن سؤالِ النـاسِ حَسْبي من الفخْرِ
فلا يطمـعَـنْ في ذَاكَ مِنّـي سوقَـةٌ ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ في القَصْرِ

ومثل هذا الشعور بالنقص لا حد له عند أبي نواس ولذلك فما كان الفقر ولا عطله من حسب أو نسب ليرغماه على قبول الواقع، وهكذا كانت النهاية، الادعاء بأن الأحساب والأنساب تشرف بالانتماء إليه[3] :

ومـا حامـت عن الأحسـابِ إلاّ لتـرفـعَ ذكـرهـا بأبِـي نُوَاسِ

أو الاستعاضة عنهما بالأدب نسباً وحسباً وذلك في رده على الخصيب حين سأله عن نسبه، فقال[4]:

«أغناني أدبي عن نسبي»

---

(١) ديوان أبي نواس، ص٢٦، ط. الغزالي.
(٢) المصدر السابق نفسه ١/٤٨، بتحقيق فاغنر.
(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٦٢.
(٤) معاهد التنصيص، للعباسي، ١/٨٤.

ثانياً ـ مسيرة حياته :

ـ المرحلة الأولى ـ مولده بالأهواز:

كمذهب للتبسيط سنحاول أن نقسم حياة أبي نواس إلى قسيمن كبيرين، أو لنقل إنها تنقسم بطبيعة خط سيرها إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل بغداد، والمرحلة البغدادية، هذا من الناحية النظرية، وأما من الناحية العملية فحياة أيّ أديب عبارة عن سلسلة متصلة من الحلقات لا يجوز الفصل بين أولاها عن آخرها لأنها تكون كلاً غير قابل للانقسام ولأن جزئيات هذه الحياة ليس من السهل الحكم عليها أو فهمها وإدراكها وتقييمها إلّا في ضوء التيار العام لكلية هذه الحياة، ولكن لما كنّا لا ندرس فن الشاعر في هذا الفصل، وإنما نحن نقدم له بالوقوف على المعالم البارزة لحياته وكان كلامنا منصباً في الأساس على أبي نواس الإنسان تمهيداً للحديث عن أبي نواس الشاعر أو عن شعر أبي نواس، لذلك جاز لدينا مثل هذا التقسيم على أن لا يكون معلولاً لعلة لا نعرفها، ولا نتيجة لفرضيات ومقدمات لا ندري كنهها، وإنما نحن نرسم باليد الخط الأول من حياته وعيننا على النتائج هناك في فنه.

أما المرحلة الأولى فتستغرق الثلاثين سنة الأولى من حياة أبي نواس، لأن المعروف أنه لم يرحل إلى بغداد إلّا بعد أن بلغ الثلاثين من عمره أو تجاوزها بقليل.

وتبدأ هذه المرحلة بمولده في الأهواز فرحيله إلى البصرة ثم صحبته لوالبة ورحيله معه إلى الكوفة، فإقامته ببادية بني أسد عاماً كريتا، ثم عودته إلى البصرة، لتنتهي هذه المرحلة برحيل الشاعر إلى بغداد حوالي سنة ١٧٩هـ على رأي أو ١٧٥هـ على رأي آخر. وأهم ما تمتاز به هذه المرحلة من حياة الشاعر إنها تشتمل على زمن تكونه إنسانياً وفنياً، وإعداده الإعداد الكافي ليكون أحد شعراء عصره البارزين.

أما عن مولده بالأهواز، فالكثرة من الكُتّاب تقول بهذا والسبب أن أباه الذي قدم إلى الأهواز أيام مروان بن محمد[1] (١٢٧-١٣٢هـ) للرباط والشحنة التقى بأمه جلبان هناك وتزوجها[2]. أما الموضع الذي قيل إنه ولد فيه. فهناك رواية تقول إنه وُلد بالقرب من الجبل المقطوع المعروف براهبان سنة تسع وثلاثين ومائة[3]. ورواية أخرى تقول إنه وُلد في قرية أُمه: باب آذار[4]. من نهر

---

(١) تاريخ بغداد، ٤٣٦/٧.

(٢) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٨.

(٣) طبقات ابن المعتز، ص١٩٤.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٥/١.

تيري[1] في حين يذكر «الأصبهاني» في مقدمة ديوان الشاعر أن أبا نواس ولد بأستان ماناذر من كور خوزستان[2]. وقد لاحظ عبدالرحمن صدقي أن الموضع الذي وُلد فيه أبو نواس هو «استانة آثار» قد حرف إلى «استان ماتارد» وهو قرية «باب آذر» لأن لفظ استانة معناها باب ولفظ «آثر» أو «آدر» أو «اذر» معناها واحد هي النار. على أن هناك من جعل مسقط رأس الشاعر مدينة البصرة، والسبب في ذلك هو أن أخبار أبي نواس الحقيقة أو الموثوق فيها لا تبدأ إلا بالبصرة نظراً إلى قصر المدة التي أمضاها في الأهواز. لذلك أصبح من المعتاد أن تقرأ إنه وُلد بالأهواز ونشأ بالبصرة[3]. وكان منشؤه بالبصرة[4] دون إشارة إلى مكان مولده. وربما جاء خبر ولادته بالأهواز بصيغة التضعيف كقولهم (وقيل وُلد بالأهواز)[5]. حتى أن ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) القريب العهد من أبي نواس لم يذكر إنه وُلد بالأهواز، مكتفياً بوصفه بأنه بصري[6] من غير أية إشارة إلى مسقط رأسه بالأهواز، أما ابن خلكان، فإنه يذكر نقلاً عن كتاب «الورقة» أن ولادة الشاعر[7] كانت بالبصرة[8] ومثله البغدادي[9]، حتى أبو نواس نفسه لم أجد له أية إشارة إلى مسقط رأسه بالأهواز: على أنه مهما يكن من شيء فستظل الأهواز هي المكان الأولى بمولد الشاعر، والعماد في هذا لقاء والديه هناك ثم زواجهما وتواتر الأخبار عن حياة الأسرة في بداية نشأتها بالأهواز.

أما عن السنة التي وُلد فيها أبو نواس فالأقوال فيها كثيرة ومتباينة، فالمعروف أن المسودة من دعاة العباسيين ظهرت في سنة ١٢٩هـ، وفي سنة ١٣٢هـ انتصر العباسيون على الأمويين في معركة الزاب الكبرى الفاصلة. ففي أي سنة بين ١٢٩هـ و١٣٢هـ كان التحاق هانيء بالأهواز ثم زواجه من جلبان لنحدد بالتقريب والتقدير لا بالحسم والتقرير تاريخ ميلاد أبي نواس؟ من أجل هذا اضطربت سنة ميلاد الشاعر ما بين سنة ١٣٠هـ وسنة ١٥١هـ.

على أنه يجب أن لا يفوتنا ما يقوله الجاحظ، معاصر أبي نواس وابن بلده البصرة: (أنا اسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة ١٥٠هـ وولد في آخرها. . .)[10] والغريب أن لا يأخذ أحد من

---

(١) مختار الأغاني، ٩/٣.

(٢) ديوان أبي نواس ١/٩ بتحقيق فاغنر.

(٣) تاريخ بغداد ٤٣٦/٧ وأخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٢١.

(٤) الفرج والتهاني (مخطوط) الورقة: ٣.

(٥) خزانة الأدب، للبغدادي، ٣٤٧/١.

(٦) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص٧٧١.

(٧) لا أثر لهذا الخبر في كتاب «الورقة» المطبوع.

(٨) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ٩٥/٢.

(٩) خزانة الأدب: ٣٤٧/١.

(١٠) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ٧٤/١٦.

المحدثين برأي الجاحظ، فالكل يضربون عنه صفحًا، ولا أدري لماذا؟ مع أنه أحق بالوقوف عنده، حتى أن «ابن عساكر» يروى أن الجاحظ كان فيمن يأخذ عن أبي نواس الحديث في جملة من العلماء منهم الإمام الشافعي رضي الله عنه[1]، بل إن هناك كاتباً مجهولاً يجعل تاريخ ميلاد أبي نواس سنة ١٥١هـ[2]. وعلى أية حال فنحن مثبتون فيما يلي سنوات ميلاد أبي نواس التي عثرنا عليها في مختلف المصادر والمراجع منسوبة كل سنة إلى مصدرها: ١٣٠[3] ـ ١٣٦[4] ـ ١٣٩[5] ـ ١٤٠[6] ـ ١٤١[7] ـ ١٤٥[8] ـ ١٤٨[9] ـ ١٤٩[10] ـ ١٥٠[11] ـ ١٥١[12].

واضح إذن أن الفرق بين أدنى سنة وأعلى سنة لميلاد الشاعر أكثر من عشرين عاماً. فإذا ما أردنا ترجيح سنة بعينها على بقية السنين فلا بد من ملاحظة جملة من الاعتبارات منها زمن زواج والديه وآخرها سنة وفاته، وأيضاً زمن رحيل الشاعر أول ما رحل إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد بعد أن بلغ الثلاثين من عمره أو أكثر. أما تقدير سنة وفاته فيكاد يكون الإجماع تاماً على أنه لم يتجاوز الستين من عمره عند وفاته أو أنه كان في التاسعة والخمسين، ومنها أيضاً أنه لم يعمر بعد الأمين (ـ ١٩٨هـ) إلا قليلاً. لم يتجاوز على الأغلب سنة ٢٠٠هـ، وإنما الأصح أن نقول أنه توفي سنة ١٩٩هـ، لذلك تكون سنة ميلاده على الأرجح سنة ١٣٩هـ أو حولها كأن تكون سنة ١٤٠هـ أو سنة ١٤١هـ...!

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ٤/٢٥٧.

(٢) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني (مخطوط) لمؤلف مجهول ـ الورقة: ٥.

(٣) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان ٢/٢٤، ودائرة المعارف الإسلامية (أبو نواس).

(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص٨٠ خزانة الأدب ١/٣٤٧، أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥، ولأبي هفان، ص١٠٨.

(٥) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/٢٤، وطبقات ابن المعتز، ص١٩٤.

(٦) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩.

(٧) ديوان أبي نواس ١/٩ بتحقيق فاغنر، خزانة الأدب، للبغدادي ١/٣٤٧.

(٨) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥، نزهة الألباء، ص٨٠، خزانة الأدب، للبغدادي ١/٣٤٥، دائرة المعارف الإسلامية (أبو نواس) ـ الترجمة العربية.

(٩) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥.

(١٠) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(١١) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ١٦/٧٤ (نقلاً عن الجاحظ).

(١٢) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني (مخطوط) الورقة: ٥.

ـ الرحلة إلى البصرة:

لم يطل المقام بشاعرنا كما رأينا في الأهواز حتى رحلت به أُمه أو أنه رحل مع والديه إلى البصرة حيث يبدأ التاريخ الحقيقي لأبي نواس. على أن الكُتّاب مختلفون حول السن التي رحل بها أبو نواس إلى البصرة فمن قائل أنه رحل وله من العمر سنتان[1]، أو ست سنوات[2] أو اثنتا عشرة سنة[3]. إلّا أن ذلك لا يمنع من القول إن الفترة التي أمضاها أبو نواس في البصرة هي من الوضوح بحيث استطعنا أن نلم بدقائق ظروفه المعيشية سواء ما يتصل منها بمحيطه العائلي، من والدين وإخوان، أو محطيه الاجتماعي من انخراطه في حلقات الدرس، وتردده على المسجد الجامع، وعلى سوق المربد، ثم على سوق العطارين حيث دفعته أُمه أو الحاجة إلى كسب العيش شريفاً أو غير شريف، إلى أن يتلقفه والبة بن الحباب من هناك منحرفاً به إلى أخطر منعطف واجه الفتى الغض الطرير.

وأهم ما يميز هذه الفترة من حياة الشاعر، إنها كانت تتردد بين ثلاثة منازع، هي: منزع العمل الـذي دفعته أُمه أو الحاجة إليه، ومنزع الشغف بالعلم الذي ساقته فطرته إليه، ومنزع ثالث كان مسوقاً إليه بغرائزه مضطرباً في مجتمعات البصرة بخيرها وشرها، بقدسها ودنسها.. ! وهكذا جاءت شخصية أبي نواس طريفة في نوازعها الخيرة، غريبة في نزواتها الشاذة، يذكر ابن منظور[4]:

(لما كان أبو نواس في أول أمره في العطارين يبري عود البخور كان له استاذ يكنى أبا الأزهر، فتزوج أبو الأزهر امرأة لم تلبث معه حتى سألته الطلاق فطلقها ثم تزوج أخرى فكانت كذلك فنفّر عن أمره مع المرأتين، فوجد أبا نواس يغرر بهن ويبلغهن ما لم يقله ولم يفعله، فقال له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: سمعت أنه من لم يضر ولم ينفع فليس من الناس، وأنا -حبي لا أقدر على النفع، فقلت أضر لأدخل في جملة الناس، فقال: اذهب فوالله لا تفلح أبداً...).

كذلك يروي ابن المعتز خبراً آخر لا يقل طرافة عن الخبر السابق من حيث دلالته على ما كان يتحلى به أبو نواس من ظل خفيف وروح مرحة[5]:

(إن أبا نواس وهو في الكتاب وكان مليحاً صبيحاً ـ مرت به صبية وضيئة الوجه، فمازحته ساعة، ثم رمت إليه بتفاحة معضضة وانصرفت فقال:

شجـرَ الـتفـاح لا خِفْتَ القحـلْ لا ولا زلْـتَ لغـاياتِ الـمـثـلْ

---

(١) خزانة الأدب، للبغدادي، ١/٣٤٧.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥.

(٣) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٢٠.

(٥) طبقات ابن المعتز، ص٢٠٨.

تقبلُ الطِّيبَ إذا عُلِّتْ بهِ وبهَا منْ غيرِ طيبٍ مُحْتَملْ
وعدتْني قبلةٌ من سيِّدِي فتقاضَتْ سيّدي حين فعَلْ
ليس ذاك العضّ من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ للقُبَلْ

وحادثة ثالثة في مكتب حفص، غاية في الطرافة والدعابة ولطف التصوير أيضاً، إذ يصف أبو نواس غلاماً ناله الضرب من مقرعة المعلم لتقصيره في الدرس، فتعاطف أبو نواس مع الصبي تعاطفاً غريباً نم عن استعداد فطرى للشذوذ المبكر[1]:

قال حَفْصٌ: أجْلِدُوهُ إنه عندي بَليدُ
لم يزلْ مذ كانَ في الدّر سِ عن الدّرسِ يحيدُ
كُشِفَتْ عنه خُزُوزٌ وعن الخزِّ برودُ
ثم هَالُوهْ بِسَيْرٍ لَيِّنٍ ما فيهِ عودُ
عندها صاحَ حبيبي يا مُعَلِّمْ لا أعُودُ

فأبو نواس، إذن يتعاطى الشعر وما طر شاربه بعد[2].

وهنا نستطيع أن نسمي جملة من المدرسين أو المعلمين اختلف أبو نواس إليهم، أو لهم الناشىء الراوية إن كان صحيحاً الذي يذكر ابن منظور أنه قرأ عليه شعر «ذي الرمة». ومنهم حفص صاحب الخبر السابق، كما كان له أكثر من معلم في فن العطارة وفن الحياة أيضاً، منهم أبو الأزهر الذي سبق ذكره، وآخر اسمه بدر الجهني البراء الذي كانت له عشرة مريبة مع أبي نواس[3]، كذلك كان له استاذ من نوع غريب هو قواده حمدان بن بشر[4].

كل هذا في حداثة سنه، وقبل أن يلتقي بأستاذه الماجن الأكبر والبة بن الحباب الأسدي، حيث نجده يتردد بين النزعة الجادة، والنزوة الشاذة، كما تصور ذلك مقطوعته الشعرية التالية:

الحمد لله إني على حداثةِ سِنّي[3أ]

---

(١) ديوان أبي نواس، ص٣٣٠ ط. الغزالي، وضحى الإسلام، لأحمد أمين، ٢/٥١.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور. ١/٥٤.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/٤٨.

(٤) المصدر السابق نفسه ٢/١٩.

(٣أ) ديوان أبي نواس١/٥٨، بتحقيق فاغنر.

فُقْتُ المحبينَ طُراً ببعضِ ما شَاعَ عَنِّي

وهكذا أصبح أبو نواس، على حد ما يذكر هو شخصية، مشهورة مرموقة سواء في شذوذه وملاحته أم بفنه وقوة تأثيره.

يذكر ابن منظور: (أن أبا نواس لما تأدب ونشأ وظرف ورغب فيه فتيان البصرة للمصادقة قال: لا أصادق إلا رجلاً غريباً شاعراً يشرب الخمور يصفها ويصف المجالس ويكون له سخاء وشجاعة...)[1].

وقد كان والبة بن الحباب هو الرجل الغريب الشاعر الذي يشرب الخمور ويصفها، والظاهر أن عمل أبي نواس بالعطارة لم يكن مهنة احترفها لفترة طويلة، لأن مثله لا يمكن أن يكون له جلد وصبر على مثل عمل العطارة وهو مشحون بحب الأدب والشعر، يدلنا على هذا أنه هو الذي كان يسعى للقاء والبة، حتى إذا جمعتهما المصادفة، في البصرة[2] والأهواز[3]، ألفت بينهما مواثيق صداقة وطيدة. ومن طرائف أبي نواس التي يرويها ابن منظور، خبر عن خروجه مع جماعة من الأدباء إلى نهر الابلة ومشارطته إياهم ثلاثة أيام بدينار ثم فراره منهم لأنه رأى عندهم (... من لم تسمح نفسي بمعاشرته ولا عيني بالنظر إليه...)[4].

هكذا شكل مجتمع البصرة، بكل تناقضاته، وجمعه بين الجد والهزل بين الإيمان والزندقة، وبين العرب وغير العرب وبين التقاليد والأعراف المتباينة، شكل هذا المجتمع شخصية أبي نواس، وطبعها بطابعها، حتى جاء في نزعاته ونزواته في طموحاته وسقطاته، صورة من هذا المجتمع البصريّ الفذ في تناقضاته ومفارقاته ما بين العبث والجد، والزهد واللهو...!

ـ الرحلة إلى الكوفة برفقة والبة:

والبة بن الحباب الأسدي، الصديق والاستاذ الذي اختاره أبو نواس لرفقته في فترة من أخطر فترات سنه، هو شاعر كوفي أسدي صليبة، يصفه صاحب الأغاني بقوله: (وكان ظريفاً شاعراً غزلاً وصّافاً للشراب والغلمان المرد...)[5]. وفي تاريخ بغداد أنه (كان من الفتيان الخلعاء المجان)[6]

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١١.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/٨، أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٠٩. طبقات ابن المعتز ص١٩٤.

(٤) المصدر السابق نفسه ١/٥٠.

(٥) الأغاني ١٨/١٠٠، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب. (٦) تاريخ بغداد، للبغدادي، ١٣/٤٨٧.

وكذلك ابن المعتز حيث يقول: (ولوالبة في المجون والفتك والخلاعة ما ليس لأحد وإنما أخذ أبو نواس ذلك عنه)[1]، ويقول عنه صاحب «قطب السرور»: (وكان والبة بن الحباب من كبار المدمنين لو قلت أنه سن الفتوة وشرع المنادمة لقلت حقاً)[2]. ولم يكن والبة من المبرزين في الشعر كثيراً. فقد هاجى بشاراً وأبا العتاهية فلم يصنع شيئاً وكر إلى الكوفة عائداً كالهارب.

والظاهر أن استاذتيته لأبي نواس هي التي أشهرته، ولسوء القالة فيه وعدم احتشامه في شعره رفض الرشيد أو غيره منادمته[3].

أما عن لقاء أبي نواس بوالبة فهناك جملة من الروايات منها أن أُمه هي التي أصحبته أبا أُسامة، أو أن والبة رآه في سوق العطارين بالبصرة حيث كان يعمل في برى العود (فلم يزل يختدعه حتى صار إليه فحمله إلى الأهواز وقدم به الكوفة فشاهد منه أدباؤها أدباً جماً)[4].

وخبر آخر يذكر أن لقاء أبي نواس بوالبة كان في الأهواز عند النجاشي الأسدي والى الأهواز وابن عم والبة لا في البصرة وأن أبا نواس نفسه كان يطلب والبة حتى ساقته المصادفة إلى هذا اللقاء وحين رأى والبة أبا نواس استحلاه وأعجب بظرفه وعرض عليه أن يتعهده ويخرجه[5]. والمهم أنه سرعان ما توثقت العلاقة بين الحمل والذئب حتى أصبح أبو نواس قيماً بشؤون والبة (يخدمه ويتصرف في حوائجه الخفاف)[6] تماماً كما كان يفعل الغلمان المرافقون لضباط الجيش الخراساني في بعوثهم الحربية مما أتاح الفرصة لقيام علاقة شاذة بين الضابط ومرافقه من الغلمان[7].

---

(١) طبقات ابن المعتز، ص٨٨.

(٢) قطب السرور في أوصاف الخمور، للرقيق النديم، ص١١٢.

(٣) الوزراء والكتّاب، الجهشياري، ص١٤٩.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٧.

(٥) المصدر السابق نفسه ١/٨، الأغاني ١٨/١٠٥، ط. الهيئة العامة للكتاب.

(٦) طبقات ابن المعتز ص٨٧.

(٧) ألحان الحان، لعبد الرحمن صدقي، ص٢٧٨. وفي ظاهرة الشذوذ يراجع: حياة الشعر في الكوفة ليوسف خليف، ص٢١٧ نقلاً عن رسالة المعلمين على هامش الكامل للمبرد (القاهرة ـ ١٩٢٣، ص١٧-٣٢. و: أبو نواس (أعلام الفكر العربي) لعمر فروخ ص١٤١.

منشورات دار الشروق الجديد سنة ١٩٦٠، نقلاً عن صفحة من كتاب «المعلمين» منسوخة في مخطوط لديوان أبي نواس من جمع حمزة الأصفهاني.

وبالرغم من صغر سن أبي نواس إذا ما قيس بعصبة المجان من أصحاب والبة الذين انخرط في سلكهم إلاّ أنه استطاع أن يبهرهم وأن يكون نداً لهم في أدبه الهابط وسلوكه الشاذ، ذلك أن كل الدلائل تشير إلى أن أبا نواس كان قد استعد لهذه الصحبة نفسياً وخبرة، فإن حياته في سوق العطارين، وانفلاته من أية رقابة ومضطربه في مجتمعات البصرة الزاخرة بالمتباينات من عناصر بشرية، وعادات وتقاليد وثقافات طارئة، كل أولئك زودته بالبذور الأولى للفساد حتى أصبح حالة مستعصية على كل صلاح أو تسوية. ولنستمع إليه كيف يفجأ الجمع الحافل عند أول لقاء له مع عصبة المجّان في دار أحدهم هو محمد بن سيار بن يعقوب يصف قيانه وابنه بمقطوعة شعرية نمت عن انسجامه مع الوسط الذي وصله به والبة[1].

يا ظبيَ ابن سيَّارِ وَزَيْنَ صَفَّ القِيانِ
لَيْنَعَتَنَّك وهْمي إن كَلَّ عنك لساني
خُلِقْتَ في الحُسْن فرداً فما لحُسْنِكَ ثاني..

هذا، والظاهر أن حياة أبي نواس في الكوفة إلى جوار والبة بين عصابات المجّان، لم تكن على شيء من اليسر والرخاء، فوالبة نفسه شاعر لم تكن له حظوة، كما نعلم عند أحد من الخلفاء أو الرؤساء لشدة مجونه مما زهدهم في منادمته، وليس بالشاعر المجلى، كذلك فإن أبا نواس لم يكن قد اتصل بأحد من السادة والأمراء ليغدق عليه، لذلك رأيناه يشكو أثناء إقامته في الكوفة عسر الحال وضيق ذات اليد. يذكر «أبو هفان» نقلاً عن أحد أصدقائه: (قال لي أبو نواس: أُخرج بنا إلى ناحية الكناسة لنتروح فخرجنا نحوها فطفنا ساعة وأبعدنا ثم رجعنا وقد كَلَّ وانخزل وانبهر فأنشأ يقول[2]:

يا رب كم وإلى كم أمشي ويركب غَيري
ما أن رضيت بهذا يا رب منك لخير
ما أبتغي منك طِرْفاً رضيت منك بِعَير

أما عن الآثار التي خلفتها رفقة والبة في أبي نواس، فالأخبار تجعل أبا نواس شديد الإعجاب بأبيات لوالبة حركته للسعي في طلبه وهي[3]:

ولها ولا ذنبَ لها حُبٌّ كأطرافِ الرِّماحِ

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، لأبي هفان، ص١٠٣. (٣) أخبار أبي نواس، لابن مظور، ١/٨.

جَرحَت فُؤادَك بالهَوَى فالقلبُ مجروح النّواحِي
سَلَّ الخليفةُ صارماً هو للفسادِ وللصَّلاحِ
أجداه كف أبي الوليد يداً مباريةَ الرياحِ
ألْقَى بجانب خصْره أمْضَى من الأجَلِ المُتَاحِ
وكأنّما ذَرَّ الهَبَا ءُ عليه أنفاسَ الرياحِ

ولكني أرى لقد كان الأولى بأبي نواس، الشغوف بالاطلاع وتتبع آثار الشعراء والأدباء، أن يكون بشار بن برد هو الاستاذ والمعلم. فأين والبة من بشار، ثم أن هذه المقطوعة ليست تساوي شيئاً بالقياس إلى فنون شعر بشار المتنوعة والتي تغطي مساحة واسعة من أشعار مخضرمي الدولتين، ولذلك فلا بد لنا من التحفظ ازاء ما يُقال من أن والبة، هو أقدم أساتذة أبي نواس[1]. وأنه (هو الذي أدّب أبا نواس)[2]. أجل لقد أدّب والبة أبا نواس، ولكن في النواحي العملية من ثقافته، ليزيده مجوناً وخلاعة، لأن أبا نواس التقى بوالبة وهو يحمل بذور المجون والخلاعة لتترعرع في بيئة مجّان الكوفة وتنمو وتورق وتثمر، وهكذا فلم يخلق والبة في أبي نواس فناً جديداً فليس في شعر أبي نواس ما يمكن أن نرده إلى والبة، اللهم إلّا ما كان من سلوك عملي، وكشف المستور والإمعان في التهتك والفجور، أمّا قول أبي نواس عن سبق والبة إياه ببيتين من الشعر هما[3]:

وليس فتى الفتيان مَنْ راح أو غدا لشرب صبوح أو لشرب غبوق
ولكن فتى الفتيان مَنْ راح أو غدا لقهر عدو أو لنفع صديق

فإن إعجاب أبي نواس بوالبة يقابله إعجاب والبة بشعر أبي نواس حيث يقول:

شجر التفاح لاخِفْتَ القحلْ لا ولا زلت لغايات الممثل

حتى أخذه غلاماً فأدّبه وخرّجه...[4]. وقد أدى هذا الإعجاب المتبادل بين الشاعرين إلى الخلط بين بعض أشعارهما فالمقطوعة المشهورة:

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤٨.
(٢) طبقات ابن المعتز، ص٨٦.
(٣) تاريخ بغداد، للبغدادي، ١٣/٢٨٧.
(٤) طبقات ابن المعتز، ص٢٠٨.

رواها أبو هفان[1] لأبي نواس ومثله المرزباني[2]، أما ابن قتيبة[3] فإنه ينسبها إلى والبة في خبر عن أحد رواة أبي نواس وتلامذته هو الدعلجي.

وهكـذا يظل الأثر الأكبر الذي خلفه والبة في أبي نواس هو أنه سلكه في زمرة أشهر مجّان مخضرمي الدولتين والعباسيين من مثل[4]:

مطيع بن إياس، ومنقذ بن عبدالرحمن الهلالي، وحفص بن أبي وردة، ويونس بن أبي فروة، وحمّاد عجرد، وعلي بن الخليل، وحمّاد بن أبي ليلى الراوية، وابن الزبرقان، وعمارة بن حمزة بن حمـزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وبشار المـرعث، وأبان اللاحقي (كانوا ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً وكلهم متهم في دينـــه)، وقد بلغ من شدة انسجام أبي نواس مع هذه الجماعة الماجنة أن اعتبر شاعراً كوفياً[5]؛ في حين لم يوصف بأنه شاعر بغدادي رغم طول إقامته بها وذيوع شهرته فيها.

الخروج إلى البادية:

في غمرة ما كان يتردى فيه أبو نواس من مجون وفسق مع والبة بن الحباب ورفاقه، تذكر الأخبار أنه (سأل والبة أن يخرج إلى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم فأقام بالبادية سنة ثم قدم ففارق والبة ورجع إلى بغداد)[6].

وقد اختلف في تقييم هذه الرحلة، فبينما يعتبرها شوقي ضيف يقظة فكرية لاستكمال الدرس والتحصيل والتزود من ينابيع اللغة في مصادرها الأصلية[7]، اعتبرها العقاد إحدى جمحّات الشاعر في مصاحبة الشطار[8]. على أن المؤكد أن هذه الرحلة أكسبته خبرة عميقة بأحوال البادية وساكنيها، وكانت عتاده فيما نظم بعد ذلك من طرديات ووصفيات[9]. ففي رحلته إلى الخصيب أمير مصر، استُطاع أن يصف مراحل هذه الرحلة منذ خروجه من بغداد إلى أن حط بالفسطاط، وصفاً شاملاً دقيقلاً لا نظير له بين معاصريه أما الفن الذي حلّق فيه أبو نواس وجلّى وكانت هذه الرحلة إلى البادية زاده وعتاده أيضاً فهو فن الطرد ووصف الكلاب والصيد والصحراء وحيواناتها يقول الجاحظ: (وأنا

---

(١) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص٨٢.

(٢) الموشح، للمرزباني، ص٤٢١.

(٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص٧٧١.

(٤) الأغاني ١٨/١٠١، وانظر أمالي المرتضى ١/١٣٠ (٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٧٢.

(٦) نفسه ١/١٢.

(٧) العصر العباسي الأول، لشوقي ضيف، ص٢٢٢.

(٨) أبو نواس، لعباس العقاد، ص١٠٦.

(٩) أبو نواس، قصة حياته، لعبدالرحمن صدقي ص٤٣.

كتبت لك رجزه في هذا الباب لأنه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة)[1] بل ربما كانت هذه الرحلة من أسباب حملته على الأعراب وحياتهم المعيشية خاصة إذا عرفنا أن بعض شعراء الأعراب طالما تغنوا بجمال البادية ونقاء هوائها، مزرين بالحواضر، ومنها بغداد لفساد هوائها وسوء معاش أهليها[2] فجاء أبو نواس ليرد على أولئك الأعراب بصورة عملية. ثم من يدرينا فربما كانت لأبي نواس وهو الشاب الرقيق الناعم، الموصوف بالجمال على غير ما يعهد العرب من جمال الرجولة[3]، بعض التجارب المريرة في البادية، سخرية منه وازراء عليه، فحركت عند أبي نواس مشاعر الكره للعرب والحقد عليهم في شعوبية مقيته ملأ بها خمرياته وغزلياته أيضاً. . . !

وعلى أية حال فإن البادية، كانت إحدى المصادر الثقافية التي نهل منها أبو نواس، سواء في ميدان اللغة والأدب والشعر أم في ميدان الحياة العملية، لينعكس ذلك كله في مختلف فنون شعره.

العودة إلى البصرة:

يصادفنا في عودة أبي نواس إلى البصرة سببان مختلفان: أولهما شوقه إلى منشئه (ولما رجع أبو نواس من الكوفة إلى البصرة وفارق والبة قيل له أراغب أنت عن والبة ومللت الكوفة، فقال هي أجدى وأطيب من أن تمل ـ ووالبة ممن لا يرغب عنه، ولكني نزعت إلى الأوطان واشتقت إلى الأخوان[4]، والسبب الثاني موت والبة كما يذكر ابن المعتز (ولما مات والبة لزم خلفاً الأحمر وكان خلف أشعر أهل وقته وأعلمهم. . .)[5]. وخلف معلم أهل البصرة على حد ما يذكر أبو عبيدة[6].

ونحن إذا جارينا مَنْ يقول أن أبا نواس أمضى مع والبة منذ رحيله عن البصرة حتى عودته إليها عشر سنوات وأنه كان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره[7]. وكان رحيله مع والبة سنة ١٥٦هـ فتكون عودته إلى البصرة سنة ١٦٦هـ أو سنة ١٦٧هـ، لذلك تكون مدة بقائه في البصرة

---

(١) الحيوان، للجاحظ، ٢/٢٧.

(٢) معجم البلدان، لياقوت، (نجد).

(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١٢.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤٨.

(٥) طبقات ابن المعتز، ص١٩٤.

(٦) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري ص٥٨.

(٧) أبو نواس، عالم آخر، دعبل، ص٤٥.

قبل رحيله إلى بغداد سنة ١٧٩هـ أو سنة ١٧٦هـ نحو عشر سنوات أو أكثر، لأن رحيله إلى بغداد كان بعد أن بلغ الثلاثين من عمره أو أكثر، وهذه المرحلة الجديدة من حياة أبي نواس في البصرة تختلف في غير قليل عن سابقتها في نفس المدينة حين كان يعمل في سوق العطارين، ففي هذه الفترة من حياته نستطيع أن نضع أيدينا على مجالين كان أبو نواس يتحرك فيهما: المجال الاجتماعي بكل تناقضاته ومركباته، والمجال التعليمي بكل طموحاته ومقاصده النبيلة، وكان هذان المجالان يتحدان في جملة من الطرائف والنوادر التي تروى عن أبي نواس هازلاً أو جاداً من غير أن نحس بالفرق ما بين جِدّهِ وهزله، إذ كان يعبث أو يهزل حيث لا موجب لهزل ولا عبث، ولكنه أبو نواس الذي كان يستأثر حضوره ويستبد مأثوره باهتمام كل من حوله، حتى ليكاد يكون آثر الناس عند جميع الحضور، وأكثر الناس استثارة للنقمة عليه، بهذا النزوع من السلوك والقدر الكبير من المواهب أصبح أبو نواس شخصية مهوبة، ذائع الصيت، يخشاه كل الناس كبيرهم قبل الصغير، وفي نفس الوقت كانوا يؤثرون شعره على كل شعر، ويرددون دعاباته ويتتبعون أخباره وطرائفه، وكان هو لا يكف عن العبث، بأي كان، وأنّى كان، ولا يتورع عن العبث بأفاضل العلماء والفقهاء، منهم أبو عبيدة[١]. والهيثم بن عدي[٢] وأبو حاتم السجستاني[٣]، وشيخه عبدالواحد بن زياد[٤]، والشيخ إسحق الأزرق الذي أبكاه أبو نواس[٥].

وفي هذه الفترة من حياته، نحس أن قريحته الشعرية قد نضجت نضوجاً كاملاً، حتى أن الجاحظ عد سينيته المشهورة وهي بصرية[٦]:

ودارِ ندامى عطلوها فأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

أجمل شعر أبي نواس على الإطلاق[٧].

أما ختام حياته بالبصرة، فقد كان حبه العاثر لجنان جارية آل عبدالوهاب الثقفي التي مثلت لُمامه النزاهة والعفة، بالقياس إلى أُمه التي مثلت الفساد وسوء السيرة، والظاهر أنه كان حباً من طرف واحد، لأني لم أقع على ما يدل أن «جناناً» كانت تبادلة الحب بإخلاص. وهكذا فلم يمنحه هذا الحب ما كان يأمل من أمان وسلام بل على العكس فقد ضاعف هذا الحب من آلامه وأحزانه،

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٥٢، ١٥٣، ١٥٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١/١٧٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١/٩٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١/١٤٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١/١٥١.

(٦) طبقات ابن المعتز، ص٢٠٦.

(٧) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣٩.

فصرنا نقرأ في أشعاره الغزلية معانيات العذريين وإن لم يستطع أن ينتحل شخصية أحد منهم، إذ لم يعد هذا الحب أن كان أملاً انطلق خلفه أبو نواس بأحلامه ليبقى حبيساً لأوهامه، أسيراً لنوازعه من غير أن يتحقق له شيء مما كان يحلم به، أو يأمله أو يتوهمه، ولكن لتبقى أُمه وجنان، تمثلان أمامه نموذجين متضادين وهو بينهما تشحذ الآلام من حواسه وتلهب الأحلام هواجسه، فيمضي بعدهما إلى قاع الخطايا، ومستنقع الآثام والأوزار، يطفىء بها، شبقاً نفسياً ونزوات ظلت تتلظى في أعماقه منذ تفتح وعيه على أول امرأة شغفته حباً والتي كانت ستصلح من حاله لو استجابت له واقترن بها كزوج صالحة، في كنف أُسرة تنعم بالهدوء والسلام، لكن جناناً كانت تحتقره وتعيب عليه سلوكه، لذلك فلم يوفق لأن يجعل منها البديل الطاهر عن الآم الفاسدة، والمطهر الذي يساعده على التخلص من أزمات أُسرية ونزوات نفسية، وهكذا ظل يتسامى إلى أمل بعيد المنال عله يعيد إليه نفسه الضائعة، ويضعه على الطريق الصحيح السليم، متجاوزاً مزالق الشطط، ومنتصراً على هوانه وضعفه ولكن ذلك لم يتحقق له، وهكذا ظلت أُمه وجنان على ما بينهما من فوارق المرحلة الزمنية، وتناقض الطبيعة الإنسانية تشكلان معاً حضوراً مزدوجاً، مثلت فيه أُمه العبث والمجون وجِنان الجِدّ والعفاف، إلى أن اضطر للرحيل إلى بغداد، مشحوناً بتكاليف حب عاثر، ومدفوعاً بحس المجد والثراء والاسم الذائع ومطحوناً بضيعة شرعية الانتماء الاجتماعي.

أما عن آثار هذا الحب في شعره، فذلك ما سنحاول الكشف عنه عند الحديث عن غزله، حين نتبين أن غزله في جنان خارج عن دائرة عامة غزله الذي ملأه بالعبث والهزل والغلاميات والغلمانيات في حين كان غزله في جنان كله جد وأقرب ما يكون من غزل العذريين. . . !

ـ المرحلة الثانية أو الرحيل إلى بغداد:

تطالعنا جملة من الأسباب دفعت بأبي نواس للرحيل من البصرة إلى بغداد، منها حبه العاثر لجنان وطلبه ود الملوك للشهرة والثراء، أو لأنه لم يطب له عيش بالبصرة لأنه كان يشعر بأنه عبد رقيق لا حر طليق[1] أو لجناية جناها أكرهته على الخروج إلى بغداد[2] أما ما هذه الجناية فالأغلب أن تكون هجاؤه المشهور للنزارية:

لستُ لدارٍ عفَتْ وغيّرها ضرْبَانِ من قَطْرِهَا وحاصبهَا

فطلبه ولد جعفر بن سليمان وشناه من كان يوده من أهل البصرة فترك البصرة وخرج عنها هارباً[3]

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٢٤.

(٢) تاريخ بغداد للبغدادي ٧/ ٤٤٠.

(٣) ديوان أبي نواس ٢/ ١١ تحقيق ايفالد فاجنر.

وعن سليمان بن داوود المهلبي قال: (حدثني أبي قال: صار إلينا أبو نواس أيام هجا نزارا فقال: أنا رجل منكم وقد تعصب على المضرية فإن أجرتموني وإلاّ خرجت عن هذا البلد. قال فكره مشايخنا التعرض من أجله لمعاداة أهل بلدهم فلما لم ير عندهم ما يحب خرج إلى بغداد)[1]. على أن المتتبع لأخباره يحس أنه كان يعد نفسه إعداداً جيداً لهذه المرحلة الجديدة من حياته في عاصمة الخلافة الإسلامية. فإنه لم يكتف بحفظ النادر والمشهور من الشعر القديم ولا بتتلمذه على والبة بن الحباب وخلف الأحمر على ما بين الرجلين من فرق في المذهب الأدبي - بل نراه يتهيأ ليكون حضوره مسعداً لمن يجالسه من الأمراء والرؤساء، وذلك بما يرويه من الطرائف وأقوال الظرفاء. يذكر «أبو هفان» أن أبا نواس دخل على يحيى بن خالد فقال له يحيى أنشدني بعض ما قلت فأنشده:

إني أنا الرجلُ الحكيمُ بطبعهِ ... ويزيدُ في علمي حكايةُ من حكَى[2]
أتتبعُ الظرفاء أكتب عنهمو ... كيما أُحدِّثَ من أحِبُّ فيضْحَكَا

وحين حل أبو نواس في بغداد حاول الانسلاخ عن ماضيه[3] في البصرة انسلاخاً كاملاً إلى درجة الازراء بالبصرة وأهليها:

ألاَ كلُّ بصري يرىَ أنما العُلَى ... مكممةٌ سُحْقٌ لهُنّ جَرينُ
وأن أكُ بصرياً فإنّ مُهَا جَرى ... دمشقُ ولكن الحديثَ شُجُونُ[4]

لقد وجد أبو نواس في بغداد العوض عن البصرة، حتى تكنى بكنية جديدة هي أبو فراس[5]، وهو يطلب إلى أوديائه في البصرة أن ينسوه كما نسيهم هو:

أيا من كنتُ بالبصرِ ... ةِ أُصفِى لهمُ الوُدّا[6]
شرْبنا ماءَ بغدادٍ ... فأنْسَانَاكُمُ جِدّا
فلا ترعَوْا لنا عَهْداً ... فما نَرْعَى لكَمْ عَهْدَا

---

(١) ديوان أبي نواس ٢/١١، تحقيق فاغنر.

(٢) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص ١٧.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٧٧٢.

(٤) مكممة: التي فيها الأكمام - السحق: جمع سحوق وهي النخلة الطويلة. الجرين: وهو موضع التمر الذي يجفف فيه.

(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٢٨.

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٧٢.

جِدُوا منّا كما أنّا وجَدْنا منكمُ بُدّا

أما عن زمن رحيله، فالمعروف إنه لم يرحل إلى بغداد للايطان بها إلاّ بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره[1] في عهد الرشيد خاصة، لأنّا لا نعرف له مديحاً في أحد من الخلفاء قبل الرشيد الذي امتدت خلافته من ١٧٠هـ إلى سنة ١٩٣هـ. ففي أية سنة من الثلاث والعشرين سنة كانت هجرته إلى بغداد؟ هل هي سنة ١٧٩هـ والبرامكة قابضون على زمام الأمور في الدولة العباسية[2]، أم هي سنة ١٧٥هـ كما يرى كاتب آخر[3]. وذلك قبل الأدالة من البرامكة سنة ١٨٧هـ بنحو عشر سنوات. والغريب أن يعتمد كلا الكاتبين على نص واحد هو قول الشاعر في مدح جعفر بن الربيع أواخر أيام الفضل بن الربيع سنة ١٩٥هـ:[4]

ولا تجحدوا بي ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

والمهم إن حياة أبي نواس في بغداد كانت نقلة كبيرة إذا ما قيست بحياته قبل رحيله إليها. ففي بغداد تفتحت أمامه أبواب الخلفاء والرؤساء، وأصبح خلطاؤه من (الوزراء والأشراف فجالسهم وعاشرهم فتعلم منهم الظرف والنظافة)[5]. وأيضاً (وكان ينادم ولد المهدي ويلازمهم فلم يلف مع أحد من الناس غيرهم)[6]. حتى أن الأخبار لتذكر إنه كان ينشد الأمين وهو صغير نادر الشعر بينما كان الكسائي يعلمه النحو[7]. وإنه كان منقطعاً إلى الأمين طيلة أيام إمارته[8] واستمر معه في خلافته حتى دعى شاعر أمير المؤمنين[9]. ولكن أبا نواس رغم ما كان يتمتع به من حظوة في قصور السادة والرؤساء، كان ميالاً بطبعه إلى الانطلاق على هواه والتحرر من قيود القصور ومجالس الأعيان. وفي ذلك يقول: (إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلا بأمرهم، والله لكأني على النار إذا دخلت عليهم حتى أنصرفَ إلى إخواني ومن أشاربه لإني إذا

---

(١) ديوان أبي نواس ١/٩ ط. فاجنر.

(٢) الرشيد وأبو نواس لعبد الحميد العبادي (مجلة الهلال ـ أغسطس سنة ١٩٣٦).

(٣) أبو نواس، لعبد الحليم عباس، ص٤٩ (سلسلة اقرأ ـ ٢١).

(٤) ديوان أبي نواس، ط. الغزالي، ص ٤٦١.

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٠٢.

(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٧، ١/١٠٢، ٢/٢٤.

(٧) المصدر السابق نفسه ١/٢٣٢.

(٨) تاريخ الطبري ٨/٥١٤.

(٩) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هانيء، لمؤلف مجهول، ورقة: ٢٨.

كنت عندهم فلا أملك من أمري شيئا)[1] . ولذلك كان يظهر في حالة تضاد مستمرة مع كل من حوله من حكام ورؤساء، ومع كل ما حوله من أعراف وتقاليد اجتماعية. فقد كانت هناك هوة عميقة تفصل بين حضوره ومأثوره، أو بين ما يلزمه وبين ما يعطيه. ففي الوقت الذي كان فيه مرفوضاً ـ إن بالسر أو العلن ـ من قبل كثير من الناس، كان آخرون كثيرون يدارون أو يكتمون تقديره ويحرصون على مودته ووصاله، مما أدى إلى كثرة مدائحه، التي بلغت نحو المئة عدا، وإلى كثرة أهاجيه التي تجاوزت المئة أيضاً، وهكذا ظهر الناس متناقضين في مواقفهم تجاهه، لا فرق في ذلك بين خليفة وأمير ورئيس، وبين عالم أديب أو شاعر حاسد أو منافس له[2] . فالرشيد الذي كان أبو نواس يهابه مهابة شديدة حتى حبسه أكثر من مرة وكان أبو نواس يتجنب الرفث والهزل في مدائحه له[3] . نراه يوصي إسماعيل بن صبيح كاتبه بأن يبحث له عن ساقية (مليحة فطنة مقدودة شكلة، حلوة متكلمة، ظريفة عالمة . .)[4] بالشروط التي ذكرها العيار (يعني أبا نواس) في مقطوعته المشهورة:

من كفِّ ساقــيةٍ ناهــيكَ سَاقــيةً في حُسْنِ قَدٍّ وفي ظَرْفٍ وفي أدَبِ

بل لقد وجدنا الرشيد يماري جعفر بن يحيى البرمكي دفاعاً عن شعر أبي نواس في الخمر حتى إن الخيال الشعبي جعل أبا نواس قسيم الرشيد في حكايا طريفة تروى، ونوادر تتلى تناقلتها الأجيال عبر العصور، ليكون أبو نواس النديم الأول للرشيد أو ليقوم مقام المضحك لأمير المؤمنين[5].

وكذلك الأمين المترخص، وجدناه يزج بأبي نواس في السجن أكثر من مرة، ويمنعه من الازراء بالأطلال ومن شرب الخمر، في حين لم يكن يصبر على فراقه ويحتمل فيه كل شيء على ما يذكر الأمين نفسه[6].

وغير الرشيد والأمين، جميع أفراد أسرة الخلافة، ممن اتصل بهم أبو نواس، فالقاسم بن الرشيد، نادمه أبو نواس ثم فارقه القاسم لأشياء لقيها منه كرهها وكرهت له[7].

وأما عيسى بن أبي جعفر، فقد كان يبر أبا نواس كثيراً حتى إنه حرص على أن يسجل أبو نواس في شعره بعض أيام رفقته له في قصره بالقفص[8]. فقال أبو نواس مقطوعته الجميلة:

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٠٢ .

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ٥٨ .

(٣) ديوانه ١/ ١٢١ ط. فاجنر.

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور، ٢/ ٨.

(٥) أبو نواس، لعبد الرحمن صدقي، ص١٧٤ .

(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور، ٢/ ٢٦ .

(٧) المصدرالسابق نفسه ١/ ٧.

(٨) المصدر السابق نفسه ١/ ١٠٤ .

يا طيبنا بقصُورِ القُفْص مُشْرِقةً فيها الدَّساكِر والأنهارُ تَطَّردُ

ولعل الأمير العباس بن عبيد الله، كان أقرب بني هاشم إلى قلب أبي نواس، لذلك كثرتْ أماديحه فيه، وأشهرها ولا شك، عند أهل اللغة والأدب، مدحته النادرة:

أيها المنتابُ عن عُفُرهْ لستَ من ليلى ولاَ سَمَرهْ

أما الأمير العباس بن محمد، فإنه كان يتودد إلى أبي نواس بنصحه حتى يكف عن المعاصي: (يا أبا علي أريد أن أقول لك شيئاً فأستحييك واستحيى من نفسي في ترك نصحك، وقد بلغني إنك مكب على المعاصي مشتهر بالقبائح والمجون..)[1] وقد كان جواب أبي نواس، إنه لا يأس لمؤمن من مغفرة الله الذنوب جميعاً ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾. ويدافع أبو نواس عن المجون بأنه تقليد العصر (فما كل أحد يقدر على المجون) مفسراً إياه تفسيراً ثقافياً (وإنما المجون ظرف) مضيفاً (ولستُ أبعد فيه حد الأدب، ولا اتجاوز مقداره..) فيجيبه العباس (هذا والله الأدب الذي يحسن معه كل شيء)[2].

أما المأمون الذي كان وزيره الفضل بن سهل يخطب بمساوىء الأمين في منابر خراسان، ومنها أشعار أبي نواس ـ صديق الأمين وصفيه ـ فإنه حين بلغه قول أبي نواس، بعد أن حبسه الأمين:

يا ربِّ إن القومَ قَدْ ظَلمُوني وبلا اقترافِ مُعَطِّلٍ حبَسُوني
أما الأمينُ فلستُ أرجو دَفْعَهُ عَنّي، فمن لي اليومَ بالمأمُونِ

قال: (والله لئن لحقته لأُغْنِيَنَّهُ غنى لا يؤمله، فمات قبل دخول المأمون بغداد)[3]. وفي الأخبار أيضاً كان المأمون وجميع من معه ممن يميل إلى الأدب يحب أن يرى أبا نواس، فلما قدم إلى بغداد، اجتمع الشعراء ببابه وحين علم بوفاة أبي نواس صرف الشعراء ولم يسمع منهم[4].

أما عن رجال الدولة الآخرين من غير الخلفاء والأمراء فالبرامكة، وعلى رأسهم الوزير يحيى بن خالد البرمكي، لم نعرف أن واحداً منهم اتخذ من أبي نواس نديماً، رغم بديع مدائحه فيهم.

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ٢/٢٥.

(٣) لمصدر السابق نفسه ١/٩٧.

(٤) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هانىء (مخطوط)، ورقة: ٤.

أما الفضل بن يحيى، فقد رفض منادمة أبي نواس رغم اعترافه بفضله في الشعر خوفاً من قالة الناس حيث يقول للأصمعي: (قاتله الله ما أشعره.. أما والله لولا قالة الناس فيه ما فارقني ولكن إذا فكرت فيه وجدت الرجل ماجناً خليعاً متهتكاً ألوفاً لحانات الخمارين فاترك نفعه لضره)[1].

أما أخوه جعفر بن يحيى، فقد كانت علاقته بأبي نواس تتردد بين العداوة والصداقة، ولذلك هجاه كما مدحه..![2]

أما آل الربيع، خلفاء البرامكة في الوزارة فلم يكن رأيهم في أبي نواس يختلف عن رأي أسلافهم، بالرغم من طول العشرة التي جمعتهم بالشاعر وكثرة مدائحه فيهم التي بلغت نحواً من خمس وعشرين مدحة. ولأن الفضل بن الربيع كان يفرق بين أبي نواس الأديب، وبين أبي نواس الإنسان، تساءل متعجباً من كثرة أدبه على تهتكه[3]. بل لقد حبسه أكثر من مرة وكان أبو نواس يوجه إليه من حبسه المدحة تلو المدحة حتى لقد تشفع بالخدم لإطلاق سراحه.. ! إلاّ أن الشيء المؤكد أن علاقة أبي نواس بآل الربيع كان الود أغلب عليها من علاقته بالبرامكة، فآل الربيع جاؤا أخلافاً للبرامكة، وأرادوا تقليدهم في السماحة والبذل والتهوس بالأدب[4]. فكان طبيعياً أن يكون لشاعر عصره المكانة الأولى عندهم، خاصة في عهد خليفة مترخص كالأمين..!

على أن هذه المواقف المتناقضة من أبي نواس ربما يكون لرجال السياسة والأخلاق وعلماء الدين، عذرهم أن وقفوها أما أن يقف مثل هذه المواقف العلماء، والأدباء فمسألة تحتاج إلى نظر، خاصة إذا كان العالم، ليس بشاعر، ينفس على أبي نواس مكانته عند الخلفاء والرؤساء وما يصله من عطاياهم[5] من أجل هذا لا أكاد أجد مسوغاً لإظهار ابن الأعرابي ازدراءه لأبي نواس وسخطه عليه أمام الناس مع كتمان إعجابه به معترفاً بأنه من أشعر الناس (وما يمنعنا من رواية شعره ألا تبذله وسخفه)[6]. وهكذا وجدنا رد الفعل عند أبي نواس، أمام هذا الزيف السياسي والاجتماعي والعلمي أيضاً، أن أصبح الشاعر ساخراً هازئاً بكل من حوله من رجال سياسة واجتماع وعلماء وأدباء، بل بكل القيم والتقاليد والأعراف، ليكون أحد عوامل هدم دولة الأمين بعد أن أصبح رأس

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢١٦.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٥٥٣ ط. الغزالي.

(٣) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هانيء (مخطوط)، ورقة: ١٥.

(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧٣.

(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٥٨.

(٦) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

مدرسة في التحرر، أبيقوري المذهب[1]. له في مذهبه أو مدرسته أتباع ومريدون، من بعد أن كان تلميذاً في مدرسة الخاركي بالبصرة[2]. من هؤلاء المريدين يوسف بن الحجاج الصيقل[3] ومنهم ابن الأبّار الذي كان ينحو منحى أبي نواس في الإباحية، حتى قال عنه العباسي (ولقد ظرف ابن الأبار بمتابعته أبا نواس في هذا المعنى)[4] أي في شعر إباحي قاله أبو نواس في وصيفة لعنان جارية الناطفي. وأيضاً: (ولقد ظرف ابن الأبار، واستهتر ما شاء، وأظنه لو قدر على إبليس الذي تولى له نظم هذا المسلك لدب إليه، ووثب أيضاً عليه. ثم قال: وأبو نواس سهل للناس هذا السبيل..)[5].

وهكذا تحول أبو نواس في بغداد إلى قضية اجتماعية بدلاً من كونه فرداً نابهاً مثيراً للجدل والنظر، وشخصية عالمية[6] بدلاً من كونه شاعراً يمثل تياراً أدبياً جديداً. فبين مأثوره وحضوره، أو بين ما كان يعطيه وما يلزمه، استثار أبو نواس في معاصريه جَدلية، شغلت الناس جميعاً من حوله وكان الأساس في هذا كله انعدام النظرة التوفيقية إليه إلاّ من خلال نفسه، حين أحب أن يكون فناناً وإنساناً معاً، أو أن يجمع بين المقتضى والمعطى، مما دعا أصفياءه الالداء كالأمين وأنصاره، وخصومه الاوداء، كالمأمون وأعوانه أن يجمعوا على معاقبته، الأولون بالعقاب المادي والآخرون بالعقاب المعنوي، في حين ظل كلا العدوين أو الصديقين على تقديره، وهكذا انتهى المصير بأبي نواس حيال هذه المواقف المتناقضة، الانحياز عن الفريقين: الأصدقاء الالداء والأعداء الاوداء والانطواء على نفسه، محاولاً نوعاً من التوافق الداخلي، وكان في كل مرة يتخلى عن الانسجام مع نفسه أو محاولة التوافق مع الخارج الموضوعي على حساب توافقه الداخلي مستسلماً لمقتضيات الحال، يحس الحرج من نفسه، والاضطراب في مواقفه، فلا يلبث حتى يعود إلى توافقه مع نفسه ثائراً أو متمرداً وهكذا كثرت نوبات توباته كما تعددت مرات نكوصه، وكذلك كانت حياته في بغداد، سلسلة متصلة من الاستسلام والخنوع، ومن الثورة والتمرد. وفي كلتا الحالين كانت الهوة السحيقة ما بين حضوره ومأثوره تتسع مع مرور الأيام، حتى بدا لنا في أخريات أيامه، حين تعرض خليفته وصديقه الأمين للهزيمة وضياع الخلافة، فالقتل وعاصمته المحبوبة بغداد للدمار والخراب، بدا خلْوا من أية علاقة تربطه بخليفته أو بعاصمته ولا يشغله من أمرهما عمّا كان فيه من همومه

(١) ابن هانىء: شاعر ابيقوري المزاج، لعلي أدهم (مجلة الهلال) أغسطس سنة ١٩٣٦.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٠٦.

(٣) مختار الأغاني ٨/٤٢١.

(٤) معاهد التنصيص ١/٩٥.

(٥) المصدر السابق نفسه ١/٩٦.

(٦) أبو نواس، للعقاد، ص١٤ وما بعدها.

الشخصية أي شاغل حتى إذا حبسه الأمين، جأر بالشكوى مدعياً أن القوم ظلموه وهم شركاؤه في المخازي والآثام:

يا ربِّ إن القومَ قد ظلمُوني ... وبلا اقترافِ معطِّلٍ حبسُوني[1]
ما كان إلا الجَرْيُ في ميدانِهِمْ ... في كل خِزيٍ والمجانةُ ديني

وحين حرم عليه الأمين شرب الخمر، قال ساخراً منددا به لإضاعته الخلافة بعد هرون[2]:

اسقني واسْقِ ذُفافَهْ ... يا أَبَا الخير سُلَافَهْ
هاتها خمراً ودعْنا ... من أحاديثِ خُرافَهْ
ضاع بل ذلّ الذي عَـ ... ـنَّفَ فيها يا ذُفَافَهْ
مثل ما ذلّتْ وضاعَتْ ... بعد هرون الخلافَهْ

قال الجماز: (لم يحفل أبو نواس بما حدث بين الأمين وأخيه أيام الفتنة ببغداد، فمن قوله:

قالت: حرام تبتغي قلت: لَا ... مَنْ حَرَّمَ الناسَ على النَّاسِ
نحن جميعاً من بني آدمٍ ... هل يحرُم الوردُ على الآسِ
قالت: فمن حَلَّلَ هذا لكم ... قلت: عليٌّ وابنُ عَبَّاسِ

قال إبراهيم الطبري: كنت في أحد أيام الفتنة جالساً على بابي إذ مرَّ بي أبو نواس، فقال: قم حتى نأخذ في شأننا فدخلنا وجعلنا نشرب، وأقبل الداخل إلينا يقول: كان كذا وكان كذا. فقال أبو نواس:

عندي للخمر أَسْماءُ ... لها دَوَاءٌ، ولها دَاءُ
يُصْلِحُها الماءُ إذا صفّقت ... وربما أفسدها الماءُ
وقائلٍ: كانت لهم قصةٌ ... فيها أحاديثُ وأنباءُ
قلتُ له: إني امرؤٌ جاهلٌ ... فيك عن الخيرات ابطاءُ
أشربْ ودعْنا من أحاديثِهِمْ ... يصطلحُ القوم إذا شَاؤُا[3]

إلى غير ذلك من شعر المجون أيام الفتنة.

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور ١/٩٦.

(٢) أخبار أبي نواس، لأبي هفان ص٩١.

(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور ٢/٨٣.

ومعنى هذا كله إن أبـا نواس أصبح «لا منتمياً» بالتعبير الجديد في حين وجدنا العديد من الشعراء، ممن لم تكن تربطهم ببغداد تلك الصلات العريضة الوثيقة التي كانت تربط أبا نواس بها يبكون بغداد متفجعين عليها منتصرين للأمين، من هؤلاء الشعراء على سبيل المثال لا الحصر صديقـه الحسين بن الضحـاك[1]. وعمـرو بن عبدالملك الوراق الذي بكى بغداد وهجا طاهر بن الحسين[2]. وعبدالرحمن بن أبي الهداهد[3] ومقدس بن صيفي[4]، وخزيمة بن الحسن[5]، الذي نظم شعرا على لسان أم جعفر صور للمأمون فيه ما أصاب أخاه الأمين على يد طاهر الآثم وما لحق بأم جعفر من الهوان والذل[6] وشاعر آخر غير مشهور اسمه ابن أبي طالب المكفوف. ولعل شاعراً لم يصف حصار بغداد وما حل بها من دمار أثناء حرب الأخوين، كما وصفها الخريمي في ملحمته الشهيرة التي بلغت عدتها مئة وخمسة وثلاثين بيتاً[7].

أما أبو نواس فقد رثى الأمين كما رثاه غيره من الشعراء. ورثاؤه يدل على أنه شهد مصرعه ولكن من غير دليل على الطريقة الفظيعة التي قتل فيها الأمين، ولا على من قتله ولا أين كان مقتله كما فعل بعض الشعراء الآخرين. ومع أن رثاءه مشحون بالانفعالات وأحاسيس الجزع إلاّ أنه صنعة شاعر حاذق. ولم يزد ما قاله على أحد عشر بيتاً، وإذا كان المديح يحركه الرجاء والطمع فإن الرثاء دليل الوفاء[8]. وهكذا فلم يكن رثاء أبي نواس للأمين كفيئاً عدلاً لعلاقته الحميمة به. وإذا كان هناك من سبب مادي نعلل به تقصير أبي نواس عن واجب الوفاء فلعلنا نذكر إن آخر مرة حبس فيها الأمين أبا نواس طال أمدها حتى يئس من الفكاك وكان ذلك أثناء النزاع بين الأخوين، فقال أبو نواس مقطوعة من الشعر يتطلع فيها إلى المأمون ليفك أغلاله:

أمـا الأمـينُ فلستُ أرجـو دفْعَـهُ عنّي، فمن لي اليوم بالمـأمـون[9]

هذا إلى تضييق الأمين عليه في أخـريات أيامه حتى منعه من شرب الخمر[10] ومن التغزل بالغلمان[11] من بعد أن أصبحت علاقته بالأمين تثير الشكوك حوله في صلاحيته للخلافة[12].

(١) تاريخ الطبري ٨/٤٤٥.
(٢) نفسه ٨/٥٠٠.
(٣) المصدر السابق نفسه ٨/٥٠٣.
(٤) المصدر السابق نفسه ٨/٥٠٨.
(٥) المصدر السابق نفسه ٨/٥٠٦.
(٦) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.
(٧) المصدر السابق نفسه ٨/٤٥٣.
(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٨٣٠.
(٩) ديوان أبي نواس ص ٥٩٦ ط. الغزالي.
(١٠) ديوان أبي نواس ص٣٢٥ ط. آصاف.
(١١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، المجلد الأول، القسم الثاني. ص١٥٢.
(١٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٤٧.

حتى إذا قُتل الأمين أحس أبو نواس بنهايته التي ربما وافقت مصرع الأمين أو بعده بقليل:

طوى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ ... وليس لمـا تَطْوى المنيّةُ ناشِـرُ[1]

وكنتُ عليهِ احـذرُ الموتَ وحْـدَهُ ... فلم يَبْـقَ لي شيءٌ عليهِ أُحَـاذِرُ

أمـا كيف كانت هذه النهـاية فالأقوال فيها مختلفة. هل مات أبو نواس مريضاً أم مقتولاً أم مسموماً[2]. يذكر الأصفهاني «إن المأمون حين علم بفقد أبي نواس أظهر جزعاً عليه قائلاً: (ذهب ظرف الزمان بذهابه وانحطت درجة القريض بهلاكه فلعنة الله على مَنْ سعى به)[3] فهل معنى هذا إن أبا نواس مات مقتولاً أو مسموماً وعلى أية حال فقد أسدل الستار على حياة أبي نواس الحافلة، تردد فيها بين المرح واليأس وبين الهزيمة والانتصار وبين العداوة والصداقة وكان فيها قوى الظهور والتميز. والعجيب ما نسمع على لسان الجاحظ حيث يقول: (لما مات أبو نواس حضرت لأشتري من كتبه شيئاً فأخرج لنا قمطر ما فيه إلا لغات العرب وما فيه شعر شاعر البتة وكان عمر أبي نواس تسعاً وخمسين سنة وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة السلام بست سنين)[4]. وبذلك تكون وفاته سنة ١٩٨هـ أي في نفس السنة التي قُتل فيها الأمين لأن المأمون عاد إلى بغداد سنة ٢٠٤ للهجرة. ودفن كما يقول ابن المعتز في مقابر الشونيزا في تل اليهود ومات في بيت خمارة كان يألفها»[5].

بهذا العرض لحياة أبي نواس في بغداد، نتبين إنه كان شاغل الناس جميعاً، من الذؤابة حتى القاع وكان في جميع الحدود التي يجوز خلالها من طوائف وفئات وطبقات، هو، هو أبو نواس المثير للاستغـراب والإعجـاب، المنفـر والمحبوب في آن، وإنه بقدر ما اتصفت حياته بالغنى والصـلات العـريضة، والصداقات العالية كانت مليئة أيضاً بالمشاحنات والمضايقات، وبالعسر والضيق أيضاً، كل ذلك صورته أخباره وطرائفه حتى ليندر أن نجده ظل على وفاق دائم مع هيئة أو طائفة ما لم يخالط تلك العلاقة الفرقة أو القطيعة. والحق إني لم أجد شاعراً تتقارب أسباب حياته من معطيات فنه مثلما كانت حياة أبي نواس وكان فنه، بكل ما في حياته من طرافة وإيحاء، وفي فنه من صدق وحرارة، وهكذا كانت حياة أبي نواس وفنه، كما صورهما مضطربه في بغداد، وجهين لحقيقة واحدة، هي شخصيته العجيبة التي كونتها وشكّلتها جملة من العوامل والمؤثرات، بدأت منذ ولادته بالأهواز حتى توجتها حياته العريضة المليئة بالزخم في بغداد.

---

(١) ديوان أبي نواس ص٥٨١ ط الغزالي.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٨٦.

(٣) ديوان أبي نواس ١/١٩ ط. فاجنر.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٩٢.

(٥) طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص١٩٤.

ثالثاً ـ تكوين أبي نواس الثقافي والفني:

ـ البيئات الرئيسية التي أثرت في تكوينه:

تعددت البيئات التي أثرت في تكوين أبي نواس الثقافي والفني نظراً إلى تعدد أماكن حياته المعيشية. فقد ولد بالأهواز ورحل إلى البصرة طفلاً ثم إلى الكوفية في سن المراهقة برفقة الشاعر والبة بن الحباب والانتقال إلى البادية مع جماعة من بني أسد حيث أمضى عاماً كريتا فالعودة إلى البصرة، ثم الرحيل إلى بغداد قصد الايطان النهائي هذا عدا جملة من الزيارات قام بها إلى كل من مصر والحجاز وفارس[1] والشام[2]. كما نستطيع أن نلحق بالبيئات التي تعد جزءاً من مسيرة حياته الثقافية الديارات والأرباض والبيع من حول الكوفة والحيرة والبصرة وبغداد. وربما الفسطاط أيضاً في مصر. تلك الأديرة والبيع وغيرها التي لم ينقطع أبو نواس عن التردد عليها طيلة حياته الأدبية.

على أن أهم البيئات التي كان لها الأثر الأول في مسيرة حياة أبي نواس وفي تكوينه الثقافي والفني هي: البصرة ـ الكوفة ـ بغداد.

وسوف نرى أن لكل بيئة من هذه البيئات تأثيرها الذي قد يخالف في كثير أو قليل تأثير غيرها من البيئات على الرغم من خضوعها لمؤثرات عامة شاملة تنتظمها جميعاً.

ـ البصرة:

إحدى ثلاث مدن هي البصرة والكوفة وواسط أسسها العرب في زمن قصير جداً[3] ونشأة البصرة في الأصل عسكرية[4]، والأغلب أن تكون مصرت في العام السادس عشر الهجري ولكنها سرعان ما ازدهرت واليها وإلى الكوفة تحولت كنوز المدائن وحضارة بابل والحيرة[5]. حتى كان إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة، كما كانوا يطلقون عليهما العراقين[6] ولكن البصرة كانت متقدمة على الكوفة، كما كان مربد البصرة متقدماً على كناسة الكوفة، حتى قيل العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة[7]. وهكذا كانت البصرة، أعظم حواضر العراق خطراً فقد ظلت طيلة

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٧٩.

(٢) معاهد التنصيص للعباسي، ٤/٢٧١.

(٣) بلدان الخلافة الشرقية، لكي لسترنج، ص٤٢، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط. بغداد.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (البصرة).

(٥) فجر الإسلام، لأحمد أمين، ص١٨٠.

(٦) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٧) عيون الأخبار، لابن قتيبة، ١/٢٢٢.

العهد الإسلامي موضع نشاط سياسي كبير، وموئلاً للمنازعات القبلية الكثيرة، مما طبع شعرها في تلك الفترة بالطابع الحماسي من فخر وهجاء ومديح[1]. أما في العصر العباسي فقد فقدت المدينة أهميتها السياسية، خاصة بعد فشل ثورة إبراهيم شقيق محمد النفس الزكية لتخلد للهدوء والسكينة، منصرفة للعلم والثقافة والأدب والنشاط الاقتصادي والتجاري، إذ كان يصلها ببغداد طريق مائي[2]. كما بلغت تجارتها البحرية حدود الصين بل لقد أصبحت فرضة العالم، وهكذا أصبح مجتمعها مجتمعاً خليطاً أممياً عجيباً يعج بمختلف التيارات ـ الاجتماعية والأدبية والثقافية.

لكن وقوع المدينة على سيف الصحراء جعلها تتلقى دائماً من الصحراء مادة لا ينفد لها معين من العناصر الشابة العربية النشطة حاملة إليها طوابعها العربية الأصيلة وقيمها العتيدة وتقاليدها العريقة. وكانت تلك العناصر أكثر اهتمامها منصباً على الآداب والفنون والشعر بالدرجة الأولى مع ميل ظاهر إلى السياسة يشغلون بها أوقات فراغهم في المساجد والساحات العامة وخاصة في سوق المربد[3]. وهكذا رأينا اثنين من الفرس هما عبدالله بن المقفع وبشار بن برد بالرغم من نزوعهما الشديد إلى الشعوبية لم يفكر واحد منهما في استخدام لغته الأصلية. وإنما كان اعتمادهما على اللغة العربية[4]. كما نلتقي في نفس الوقت بكل من سيبويه الفارسي صاحب «الكتاب» والخليل بن أحمد الفراهيدي العربي؛ العالم الموسيقي منظم قواعد العروض ومنظم المعجم العربي الأول «كتاب العين»[5].

وهذا وتعتبر البصرة أول مدينة إسلامية عنيت باللغة والنحو وتدوينهما، وقد سبقت الكوفة بنحو مئة عام[6]. ومن أقدم علمائها: أبو الأسود الدؤلي (ـ٦٧هـ). ونصر بن عاصم الليثي (ـ٨٩هـ). وفي القرن الثاني يحيى بن عمر (ـ١٢٩هـ)، وابن أبي إسحق الحضرمي (ـ١١٧هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ـ١٥٢هـ)، ومحمد بن السائب الكلبي (ـ١٤٦هـ) وابنه هشام (ـ٢٠٤هـ)، وخلف الأحمر (ـ١٨٠هـ) استاذ أبي نواس، والأصمعي (٢١٥هـ) معاصره، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ـ٢١١هـ)، والهيثم بن عدي (ـ٢١٦هـ).

---

(١) العصر الإسلامي، لشوقي ضيف، ص١٦١.

(٢) بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٧.

(٣) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص١٦١.

(٤) العربية، ليوهان فك، ص٦٣، ترجمة رمضان عبدالتواب.

(٥) تاريخ الموسيقى العربية، لفارمر، ص١٤٨، ترجمة حسين نصار.

(٦) ضحى الإسلام، لأحمد أمين، ٢/٢٨٤.

كذلك ازدهر في البصرة فن الرواية، أي رواية الشعر القديم[1] حتى أصبح مهنة وحرفة. وهكذا أصبح مسجد البصرة مركزاً لحركة علمية كبيرة وتعددت الحلقات العلمية فيه وتنوعت أوجه نشاطها ما بين مباحث كلامية وأخرى لعلوم الدين وثالثة لعلوم العربية، وإذن فلم يكن عجيباً، أن ينسبوا ما حصل عليه أبو نواس من علم وثقافة ومعرفة، إلى البصرة[2]. بل إن ظهور المعتزلة على يد واصل بن العطاء في البصرة، من العلامات الثقافية البارزة على عظمة هذه المدينة، فالمعتزلة هم الذين تكفلوا بالرد على الزنادقة، حين أرادوا ومعهم الشعوبيون والمجان القضاء قضاء مبرماً على الإسلام والعروبة[3]. فنهض المعتزلة يعاونون الدولة في محاجة هؤلاء الزنادقة، وذلك بعد أن استفحل شرهم بما كانوا يضعون من تصانيف ويترجمون من كتب عن اللغات الأجنبية.

وللرد عليهم عمد المهدي إلى وسيلتين: الأولى إنه كان أول من أمر بتصنيف كتب الجدل[4] حتى كان للملاحدة تأثير كبير على المعتزلة في اتخاذ مواقف محددة من أفكارهم[5]، وقد استمر تقليد الرد على الملحدين والزنادقة بالرأي والحجة قبل إنزال العقوبة بهم، ساري المفعول لدى الخلفاء من بعده. . . !

الوسيلة الثانية: أنه قام بتعيين عبدالجبار المحتسب للتضييق على الزنادقة وتمزيق كتبهم وقتلهم بعد أن قاومهم بالرأي والحجة وكانت هذه الحملة في السنوات الأخيرة من خلافته[6]

فالزندقة إذن اتخذت في مدينة البصرة، الرائدة الأولى لكل مدينة إسلامية نشأت بعدها، طابع المدينة نفسه، من الفكر والرأي فلم يعد غريباً والحالة هذه، أن نلتقي بالكثير من ذوي النزعات المتطرفة والأفكار الغريبة، بعد أن أصبحت تعج ببحر متلاطم من الأفكار والعقائد والمذاهب والعناصر المتباينة يذكر أبو الفرج[7].

(كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى، وصالح بن عبدالقدوس، وعبدالكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الازد. . . فكانوا يجتمعون في

---

(١) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف، ص١٤٨.

(٢) طبقات ابن المعتز، ص٢٠١.

(٣) الحيوان، للجاحظ، ٧/ ٢٢٠.

(٤) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، للسيوطي ص٢٧١.

(٥) من تاريخ الإلحاد في الإسلام، لعبدالرحمن بدوي، ص٢٧.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص٣١.

(٧) الأغاني، ٣/١٤٦، ط. دار الكتب.

منزل الأزدي ويختصمون عنده، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال وأما عبدالكريم وصالح فصححا التوبة، وأما بشار فبقي متحيراً مخلطاً وأما الأزدي فمال إلى قول السمنية وهو مذهب من مذاهب الهند وبقي ظاهره على ما كان عليه قال: فكان عبدالكريم يفسد الأحداث، فقال له عمرو بن عبيد قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستزله وتدخله في دينك، فإن خرجت من مصرنا وإلّا قمت فيك مقاماً آتي فيه على نفسك، فلحق بالكوفة...).

ومن هؤلاء البصريين، بشار بن برد الذي ظل متحيراً مخلطاً وكان أبو نواس، يأتم به ويحاول تقليده في كثير من فنونه ومذاهبه الشعرية، وإذن فليس عجيباً أن يكون أبو نواس متأثراً ببشار وغيره من أصحاب الكلام والنظر العقلي، ولكن بشاراً لم ينج من ملاحقة المعتزلة له، فقد تعاون واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد على نفيه من البصرة إلى حران حتى إذا مات واصل سنة ١٣١هـ رجع بشار إلى البصرة فلم يتركه عمرو بن عبيد حتى نُفيَ ثانية منها وظل يتنقل في البلاد إلى أن مات عمرو بن عبيد فعاد إلى البصرة وأقام بها حتى قتله المهدي بتهمة الزندقة سنة ١٦٨هـ. ونفي بشار من البصرة يذكرنا باضطرار أبي نواس نفسه مغادرة المدينة لسبب غامض لم نتبينه على وجه الدقة[1]. فلعل ذلك كان لأسباب تتصل بالعقيدة، أو لتطاوله على السادة والرؤساء...! ومثله الشاعر محمد بن مناذر الذي اضطره المعتزلة إلى مغادرة البصرة أيضاً.

وإذا كنّا لاحظنا بعض المنحرفين عن جادة الصواب من متكلمي البصرة فإن المدينة كانت تموج بأصحاب الملل والنِحل المختلفة، ينقل الشريف المرتضى عن الجاحظ قوله[2]:

(كان منقذ بن زياد الهلالي، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وحفص بن أبي ودة، وقاسم بن زنقطة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعلي بن الخليل، وحمّاد بن أبي ليلى الراوية، وحمّاد بن الزبرقان، ووالبة بن الحباب، وعمارة بن حمزة بن ميمون، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ المهلبي، وبشار بن برد المرعث، وابان اللاحقي، يجتمعون على الشراب وقول الشعر ويهجو بعضهم بعضاً وكل منهم متهم في دينه).

وبعض أفراد هذه الفئة هم من البصرة من مثل بشار بن برد الذي كان أبو نواس كثيراً ما ينسج على منواله، وأبان اللاحقي الذي كانت بينه وبين أبي نواس أحن ومشاحنات طويلة، ومنهم محمد بن مناذر صديق أبي نواس منذ نعومة اظفاره. ويدل على خطر الزندقة وسعة انتشارها أن بعض العرب سقطوا في براثنها منهم عربي من الازد كان يعتنق السمنية[3]، واثنان من بني هاشم

---

(١) ص٤٨-٤٩ من هذا التمهيد. (٢) أمالي المرتضى ١/١٣١. (٣) الأغاني ٣/١٤٧، ط. دار الكتب.

اعترفا بزندقتهما[1] كما سمى الشريف المرتضى جملة من العرب الزنادقة من بينهم الوليد بن يزيد[2]. ولكن البصرة استطاعت أن تهزم بحكمتها ما تعرضت له من موجات المجون والزندقة، وأن يتغلب إيمانها على كل ما ورد عليها من الملل والنِحل الغريبة. فالبصرة التي رعت الحسن بن هانيء رعت من قبل الحسن البصري وتلامذته وهكذا تمخضت كل من تجربة الشاعر ومدينته عن انتصار الحكمة على المجون، والإيمان على الزندقة (حدث المرزباني عن الصولي عن أبي العيناء قال لي المتوكل بلغني إنك رافضي فقلت: يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة ومنشئي مسجد جامعها وأستاذي الأصمعي[3].

وكذلك كان أبو نواس حين تغلبت نوازعه على نزواته، تماماً كما كان حال مدينته التي إليها كانت نسبته كما لم تكن لأية مدينة أخرى. فللبصرة إذن الفضل الأول من دون بقية الحواضر والبيئات الأخرى في تكوين أبي نواس الثقافي والعلمي والإنساني أيضاً. فإذا ما أبدى الفضل بن الربيع إعجابه الشديد بكثرة أدب أبي نواس، مع تهتكه متسائلاً أين تأدب يجيبه سعيد بن وهب (ببلده بين مسجده ومربده)[4].

فأبو نواس إذن والبصرة، صنوان متشابهان، بل متماثلان في معركة الثقافة والفكر والعقيدة. كل ما تعرض له أبو نواس، من شذوذ، واستهتار، ومجون واختلال عقيدة، كان صورة لما اضطربت به البصرة في معركتها مع مختلف التيارات والمذاهب والعقائد ليكون لفكرتها وعقيدتها وأصالتها النصر الأخير، وكذلك كان أبو نواس في انتصاره على ظروفه القاسية وهو يجد في استيعاب تجربة البصرة العلمية الرائدة ويحاول التجاوز عن هوان نشأته وهو يدخل حلبة المنافسة ومغالبة الأحداث من حوله، حتى استوت له عقيدة قويمة.. وفكر نير.. وشعر مبرز..! ليكون رمزاً خالداً لمدينته العتيدة.

ـ الكوفـة:

تقع الكوفة في المركز الثاني بعد البصرة من حيث الأهمية في تكوين أبي نواس الثقافي والفني. وهي قرينة البصرة أنشأتها الجيوش الإسلامية التي اشتركت في معركة القادسية. وكان

---

(١) الطبري ٨/١٩١.

(٢) أمالي المرتضى ١/١٢٨.

(٣) معجم الأدباء ١/١٥٣.

(٤) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هانيء (مخطوط)، لمؤلف مجهول، ورقة: ١٥.

يطلق عليهما اسم العراقين والمقصود به عاصمتا العراق[1]. وحين أصبح هناك عراق العجم وعراق العرب أصبح لفظ العراقين يطلق على غير مسمى[2].

واسم الكوفة عربي مثل البصرة وواسط[3]. سميت بهذا الاسم لاستدارتها أو لاجتماع الناس بها من قولهم قد تكوف الرمل[4]، كما دعيت خد العذراء[5]. وقد خططت سنة ١٧هـ في أيام عمر بن الخطاب وقامت على بسيط واسع من الأرض، على الضفة الغربية لنهر الفرات بجوار الحيرة، أو على أنقاضها، وكانت الحيرة منازل المناذرة. وبالقرب منها يقع قصرا الخورنق والسدير اللذان تدور عليهما العديد من أقاصيص العرب في الجاهلية وكان الخلفاء يحطون في قصر الخورنق رحالهم عند خروجهم للصيد[6]. وبالقرب من الكوفة تقع مشاهد القادسية والنجف وكربلاء.

ومن محلات الكوفة المعروفة الكناسة[7] وتقابل المربد في البصرة ولكنها أقل شهرة وأثراً. وقرب الكوفة من الصحراء جعلها عرضة للمؤثرات الثقافية والاجتماعية البدوية.

وكانت الكوفة عاصمة الخلافة الإسلامية زمن علي بن أبي طالب ولكن بانتقال الخلافة إلى الشام أصبحت الكوفة تابعة لها، كما غدت مصدراً للثورا ت والقلاقل المستمرة خاصة بعد مقتل الحسين سنة ٦١هـ، ومن ثم أصبحت موئلاً للشيعة. كما اتجه إليها مؤسسو الدولة العباسية حتى إنه تمت البيعة لأبي العباس السفاح، أول خليفة عباسي في مسجدها[8] ومع هذا فقد انصرف عنها العباسيون إلى بناء الهاشمية سنة ١٣٤هـ[9] حتى بنى المنصور بغداد (١٤٥-١٤٩هـ) لتكون معسكراً لجيشه ومقراً لملكه...!

هذا وتعتبر الكوفة منافسة للبصرة منذ عهد مبكر من حياة المدينتين، إذ كان التنافس بينهما في الفتوحات. ثم أصبحت المنافسة سياسية، حين نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة. وانحازت الكوفة إلى علي بن أبي طالب، حتى إذا دخلت المدينتان في طاعة الشام تحولت المنافسة بينهما في ضروب من المآثر والاسبقيات في مجال العلوم من نحو وصرف ولغة وأدب وكلام

---

(١) بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٣٤.

(٤) معجم البلدان، لياقوت (الكوفة).

(٥) المصدر السابق نفسه والمادة نفسها.

(٦) بلدان الخلافة الشرقية ص١٠٤.

(٧) المصدر السابق نفسه، ص١٠٢.

(٨) الطبري، ٦/٨١.

(٩) تاريخ اليعقوبي، ٣/٩٥.

وفي الأفضلية في الحروب والفتوح، وفي النجابة والسيادة وكثرة العدد، وفي خصوبة البلد وحسن الموقع.

وأما عن المنافسة في مجال العلوم، فقد سبق أن قدمنا أن البصرة سبقت الكوفة بنحو مئة عام قبل أن تؤسس الأخيرة مذهباً لها يضاهي مذهب أهل البصرة وينازعه. ويعتبر أبو جعفر الرؤاسي رأس مدرسة الكوفة، ثم جاء بعده الكسائي ـ رفيق أبي نواس في تعليم الأمين ـ والفراء.

إلاّ أن هناك فارقا أساسيا بين المذهبين، إذ المعروف أن البصرة هي صاحبة مدرسة القياس في حين عرفت الكوفة بعدم التشدد في الرواية وهكذا تضخمت رواية الكوفيين ودخلها موضوع ومنتحل كثير[1]. وأشهر رواة الكوفة، ولا شك هو حماد الراوية، أحد ندمان وأصدقاء أبي نواس أثناء مقامه بالكوفة مع أستاذه والبة بن الحباب[2]، وكان يقابله في البصرة راويتها المشهور خلف الأحمر، أستاذ أبي نواس المشهور في البصرة بعد مغادرته لوالبة ومجان الكوفة من أمثال حمّاد الراوية.

وأما عن تقدم البصرة على الكوفة في الرواية، فالسبب فيه هو أن أعراب بادية البصرة الذين أخذ عنهم رواة البصرة كانوا أعرق بداوة من أعراب بادية الكوفة الذين أفسدتهم الحضارة[3].

وهكذا أتيح لأبي نواس أن يتتلمذ على مدرستين في الرواية مختلفتين متمايزتين مما أخصب ذهنه، ووسع في مداركه هذا بالإضافة إلى اختلافات أخرى اجتماعية وأدبية، عادت على الشاعر ولا شك بالكثير من الآثار الحسنة والسيئة، وكانت لها في شعره وتفكيره وسلوكه نتائج واضحة. من ذلك أن الكوفة كانت موطن الارستقراطية العربية والدينية[4]. وإن العنصر الفارسي من دون العناصر الأخرى، كان هو الغالب على مجتمعها في حين كان مجتمع البصرة أممياً. كذلك قامت الكوفة بالقرب من الحيرة النصرانية حيث تكثر البيع والديرة مما جعل المنطقة كلها ومنها مدينة الكوفة تخضع لمختلف المؤثرات الحضارية من مسيحية وفارسية وبيزنطية وإغريقية، وكان أثر ذلك كله واضحاً في خمريات أبي نواس وغزله، لكثرة تردده على تلك الأرباض بما فيها من ديرة وبيع وكنائس وملاه. ولعل أبا نواس لم يعرف المجون، بصورته العباسية إلاّ في الكوفة التي تعتبر أعرق من أية

---

(١) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف، ص١٤٩.

(٢) الأغاني، ٦/٧١.

(٣) ضحى الإسلام ٢/٣١١.

(٤) حياة الشعر في الكوفة، ليوسف خليف، ص١٥٨ وما بعدها.

مدينة إسلامية أخرى في المجون. فمنذ عهد عثمان بن عفان وجدنا والي المدينة الوليد بن عقبة يشرب الخمر ويتهوس بالغناء مع صديقه النصراني أبي زيد الطائي[1]. مما اضطر الخليفة عثمان إلى إقامة الحد عليه[2]، كذلك وجدنا بعض شعراء الكوفة في أول العصر الأموي كالاقيشر الأسدي، الذي كان يلقبه جرير بالخليع[3]، يد من شرب الخمر حتى أن عراقياً لم يشتهر بها مثل شهرته[4]. وفي آخر العصر الأموي نجد الوليد بن يزيد الذي يعتبر أستاذ أبي نواس في الخمر، وكانت علاقته بالكوفة وثيقة: فأستاذه عبدالصمد بن عبد الأعلى كوفي معروف بالمجون والزندقة[5]. وكان كثير من ندمائه كوفيين، يذكر أبو الفرج أن الوليد أمر شراعة بن الزندبوذ أحد الشعراء المجان[6] أن يسمي له جماعة ينادمهم من ظرفاء أهل الكوفة فسمى له مطيع ابن إياس وحماد عجرد والمعيطي المغني فكتب في إشخاصهم إليه ولم يزالوا من ندمائه إلى أن قتل ثم عادوا إلى أوطانهم[7].

وبعض هؤلاء الندمان من رفاق والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس وبالتالي أصبح أبو نواس رفيقاً لهم، فتعلم منهم ولا شك ضروباً من المجون لم يكن يعرفها من قبل.

كذلك فإن الوليد بن يزيد كان كثير التردد على منطقة الحيرة والكوفة. وقد جاء ذكر بعض أديرتها في شعره مثل «دير يونا ودير مرعبدا»[8].

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الكوفة عند إلمام أبي نواس بها في صحبة والبة بن الحباب الأسدي، كان قد مرَّ على إنشائها نحو قرن ونصف القرن، وفيها نجد سيطرة اللغة والعادات والتقاليد الفارسية ومنها المجون والزندقة، وذلك لغلبة العنصر الفارسي على مجتمعها، ثم لأنها كانت موئل الارستقراطية العربية من أبناء وأحفاد الصحابة ورؤساء القبائل، بكل ما كان لهذه الطبقة من امتيازات مادية ومعنوية، جعلها أشبه بالطبقة الارستقراطية من ابناء المهاجرين والأنصار من سكان حاضرتي الحجاز: مكة والمدينة، أثناء الحكم الأموي الذين اتخذوا من الغناء والموسيقى

---

(١) الأغاني ٥/١٣٥ ط. الدار.

(٢) الأغاني، ٥/١٢٩.

(٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ٢/٥٤٢، والأغاني، ١١/٢٥٣.

(٤) العصر الإسلامي، لشوقي ضيق، ص٣٧٩.

(٥) الأغاني، ٣/٧، وتاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن، ٢/١٠٥ وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١١٤.

(٦) الديارات، للشابشتي، ص١٦٢.

(٧) مختار الأغاني، ٢/٥٣٢.

(٨) ديوان الوليد بن يزيد ص٥٩ ومعجم البلدان لياقوت.

والغـزل الإباحي مادة للترفيه والانصراف عن السياسة كذلك كان شأن الارستقراطية العربية في الكوفة، حيث تكفلت دور القيان بتهيئة أنسب الظروف للترفيه عنها ومن أشهر هذه الدور دار ابن رامين وشهرتها لا تدانيها شهرة وكان فيها ثلاثة من الجواري هن: سلامة الزرقاء[1] وسعدة وربيحة كن ينشـرن الفتنـة ويثـرن الإغـراء في مجتمـع الكوفة، ومثلها دار ابن منيح وجاريته المشهورة سحيقـة[2]، ودار ابن الاصبع، ودار ابن سيار ودار القراطيسي[3]. وهكذا سبقت الكوفة كلاً من البصرة وبغداد في مضمار المجون، وخاصة في الغزل المكشوف. ومن يراجع كتاب الأغاني يقف على ما كان لدور القيان هذه من شأن في تطوير الشعـر العـربي في لغته وموسيقاه وموضوعاته، وخـاصـة في ميدان الغزل المكشوف أو الإباحي والغزل بالمذكر، الذي كان شعراء الكوفة من مخضرمي الدولتين أول من عمل على إشاعته في الحواضر الأخرى. وكانت الأديرة تنافس دور القيان، والحانات والحوانيت والمنتزهات الأخرى في اجتذاب أبناء الطبقة الارستقراطية وغيرهم من فنانين وشعراء وموسيقيين وظرفاء، لما كانت تهيئه تلك الأديرة لروادها من غناء وشراب وطعام ومتع أخرى.

هذا وكان يقابل ظاهرة المجون في الكوفة ظاهرة أخرى تقف على النقيض منها هي ظاهرة الزهد، وكلتا الظاهرتين تعتبر هروباً من واقع الحياة الصحيح واتجاهها السليم.

أما ظاهرة الزهد فتعتبر هروباً إلى الوراء أو الخلف لما فيها من غلو في التدين في صورة زهد شديد لا تتفق وما حلل الله لعباده ولا مع دعوة الإسلام إلى الحياة. أما ظاهرة المجون، فتعتبر هروباً إلى الأمام لما فيها من تطرف وغلو أيضاً في الإقبال الشديد على الملذات الدنيوية، مع الإغراق فيها في صورة مجون ولهو وما يتصل بهما من زندقة وإلحاد.

وعلى حين كان الزهد يقابل المجون في الكوفة، كان علم الكلام أو الاعتزال هو المقابل له في البصرة[4].

أما بالنسبة لأبي نواس، باعتباره قسيماً مشتركاً بين الحاضرتين، فإن المجون الذي تمرس به

---

(١) الأغاني، ١٥/ ٦٠ ط. الدار. وانظر كتاب قيان بغداد، لعبد الكريم العلاف، ص٩٨، ط. بغداد ١٩٦٩.

(٢) الأغاني، ١٥/ ٥٨ ط. الدار.

(٣) انظر في كتاب: حياة الشعر في الكوفة ليوسف خليف فصلي: الحياة الاجتماعية ص٢١٣، والشعر وحياة اللهو ص٥٩١.

(٤) ضحى الإسلام، لأحمد أمين، ٢/ ٨٢.

في كل منهما، تدرع لمواجهته، بما تدرعت به كل من الحاضرتين، وهكذا كان أبو نواس ماجناً زاهداً بالتقليد الكوفي وكان ماجناً ومتكلماً أو فيلسوفاً بالتقليد البصري مع فارق بسيط، هو أن ما يجوز على المجتمعات من تزامن ظواهر متناقضة قد لا يجوز على الأفراد، فالكوفة عرفت تياري الزهد والمجون معاً لأسباب مختلفة بالطبع في حين، كان لهذين التيارين سبق المجون على الزهد عند أبي نواس، ومع هذا فإن الذي يتعمق في نفسية أبي نواس يحس أن في أعماق هذا الشاعر الفذ كانت تتردد أصداء لمراجعة النفس والندم على التفريط في الدين مع التشوق إلى حياة أنقى وأكثر براءة تسمو به على مستنقع الاوضار الذي كان يتمرغ فيه. وهذا ما لاحظه «العقاد» على أبي نواس من أنه لم ينقطع عن اللهج بالأديان بمعنى أن الدين كان شاغلاً له وإن لم يكن يطيب للمتدينين ما كان يلهج[1] به.

وهكذا فإن الكوفة بما كانت عليه من وَفرة في المذاهب الاجتماعية، أكملت مع البصرة تكوين أبي نواس ثقافياً وفنياً كما لم تفعل حاضرة أو بيئة أخرى، فعلى حين تكفلت البصرة بالجانب الجدي من فكر وثقافة أبي نواس، استكملت الكوفة جانب المجون والعبث من هذا التكوين، على أن لا يكون معنى قولنا الفصل بين هذين الجانبين فصلاً يمنع التداخل، فأبو نواس تعلم على يد الخاركي (وهو بصري) المجون، كما كانت رفقته لوالبة بن الحباب وعصبته من الكوفيين ليست بدون آثار جدية في تكوينه الفني، ولكن الخاركي وغيره من شعراء البصرة المجان قد تتلمذوا في المجون على شعراء الكوفة لأن الكوفة ربما كانت أول بيئة إسلامية عرفت المجون بصورته العباسية، ومن ثم تصدره إلى غيرها من الحواضر الإسلامية. فالكوفة والبصرة إذن هما اللتان أسلمتا أبا نواس إلى بغداد، بعد أن أنضجتاه جداً وهزلاً، علماً وعبثاً، فناً وشعراً، وعند رحيله إلى بغداد، رحلت معه هاتان الحاضرتان بمواهبهما ومنجزاتهما العظيمة، فكان خير ممثل لهما، وأصدق معبر عن مكنوناتهما، وهكذا استطاع أبو نواس أن يصنع في بغداد، كما لم يستطع شاعر آخر كوفي أو بصري من معاصريه، ومع أن بغداد لم تمنحه نسبتها ليسمى شاعراً بغدادياً، ولكنه كان أصدق شاعر في التعبير عن ظرف بغداد ومزاجها اللطيف وعقلها الكبير..!

ـ بغـــداد:

أما بغداد الحاضرة الثالة ذات الأثر القوى في تكوين أبي نواس الثقافي والفني، فإن هناك جملة من الملاحظات لا بد من أخذها بعين الاعتبار، ونحن نبحث عن أثر هذه المدينة العظيمة

---

(١) أبو نواس، للعقاد، ص١٧٥.

في تكوين أبي نواس أولها، إن بناء بغداد (١٤٥ـ١٤٩هـ) كان في وقت قريب جداً من تاريخ ميلاد أبي نواس (١٣٩ أو ١٤٠هـ على الأغلب) وثانيها إن لقاء المدينة والشاعر، تم في زمن نضوجهما واكتمالهما لعدة عطائهما، أبو نواس بعد العديد من المراحل والتقلبات التي مرَّ بها حتى استوى شاعراً مرموقاً في العراق كله وذلك بعد أن بلغ الثلاثين من عمره أو تزيد، وبغداد بعد أن وافاها عصر هرون الرشيد، عصر التفتح على الثقافات والآداب والفنون، أو عصر التسامح والبذل بعد عصر المنصور المتزمت، وعصر المهدي الذي يعتبر مرحلة انتقال إيذاناً بعصر هرون الرشيد، وكل ذلك تم قبل رحيل أبي نواس إلى بغداد للايطان فيها بصفة نهائية.

أما الملاحظة الثالثة، فهي أن كلاً من الشاعر والمدينة يدينان لتراث أدبي وفكري واجتماعي مشترك أثر في تكوينهما، ورسم معالمهما، وهذا التراث هو ما انتهى إليهما من منجزات البصرة والكوفة في مجال الفن والثقافة، والآداب، فكما أن أبا نواس للبصرة والكوفة، الفضل الأول فيما بلغه من علم وثقافة وشعر، وما تمرس به من تجارب حسنة أو سيئة، حتى زمن وفادته على بغداد، كذلك فإن بغداد قد آل إليها مواريث، هاتين الحاضرتين من آداب وفنون وعلوم واجتماع، فلولا البصرة والكوفة، ما كان يمكن لأبي نواس ولا لبغداد أن يصلا إلى ما وصلا إليه من عظمة وتفوق، فكأن كلاً من الشاعر والمدينة كانا على موعد مع القدر، ففي بغداد لا في غيرها من الحواضر والعواصم، سطع نجم أبي نواس في عالم الشعر، وطبقت شهرته الآفاق حتى أصبح اسمه، كما سبق لنا القول قرين اسم الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة.

ومنذ البداية، راعى خلفاء بني العباس أن تكون المدينة منافسة لأعظم العواصم العالمية من مناعة في الموقع وفخامة في البناء وجمال في الرسم، حتى غدت المنافسة الوحيدة لبيزنطة[١]. وقدر عدد سكانها حينئذ بمليوني نسمة[٢] ومع أن المدينة بنيت على أنقاض قرية تدعى باغ داد بمعنى عطية الإله[٣]. مما يدل على أن اسمها لم يكن عربياً مثل اسماء البصرة والكوفة وواسط فالغالب أن يكون أرامياً[٤] إلاّ أن أبا جعفر سماها دار السلام[٥] أو سميت كذلك نسبة إلى دجلة، التي يقال لها وادي السلام[٦]. وما أن أتم المنصور (١٣٦ـ١٥٨هـ) بناء بغداد (١٤٥ـ١٤٩هـ) حتى

---

(١) تاريخ العرب (مطول)، لفيليب حتى، ٢/٣٧٤.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن، ٢/٣٨٢.

(٣) معجم البلدان لياقوت (بغداد).

(٤) بلدان الخلافة الشرقية، لكي لسترنج، ص٣٤.

(٥) معجم البلدان لياقوت (بغداد).

(٦) تاريخ الإسلام السياسي، ٢/٢٧٣.

أصبحت مركزاً للإدارات المدنية والعسكرية، بل لقد أصبحت قلب العالم الإسلامي النابض ومثابة الثقافة والجمال، كما غدت محط أنظار الطامحين من رجال السياسة والأدب والسلطان والمال.

هذا وقد كان لنقل عاصمة الدولة العباسية إلى بغداد على مقربة من الفرس، أنصار الدعوة العباسية أن غلبت الطوابع الساسانية على الدولة الجديدة وبخاصة عاصمتها بغداد فإن المنصور أقام عاصمته على شاكلة طيسفون (المدائن) حاضرة الدولة الساسانية[1] كذلك كان قصره المعروف بقصر الذهب على غرار قصورهم ذات الأواوين الفخمة، وكذلك كانت الخلافة تدار بنفس النظام، الذي كانت تدار به الأمبراطورية الساسانية حتى أصبح الخليفة نفسه، وكأنه ملك ساساني[2] فهو سلطان الله في أرضه، كما صرح بذلك المنصور نفسه، وأيضاً شاع تقليد الأزياء الفارسية لا في بلاط الخلافة ورجاله وطبقاته وطوائفه المختلفة من امراء ووزراء وحاشية فحسب، وإنما تأثر بهذه الأزياء عامة الناس أيضاً. وليس من شك في أن أظهر ما كان للفرس من مساهمة تمثل في اضفائهم على المجتمع الإسلامي، وعلى الآداب العربية مواصفات رققت من حواشيها، فهم الذين نقلوا إلى العرب مجالس الغناء. والمنادمة والتأنق في الطعام والشراب والزخرف في الملبس والمظهر.

وفي ظل الثورة العباسية، بدعوتها إلى التسامح والمساواة انطلق الفرس وغيرهم من الأعاجم، يمرحون وينفسون عن نفوسهم الكظيمة، فأقبلوا وأقبل معهم الناس على اللذات والخمر والغناء والرقص كما لم يفعلوا من قبل، في ظل الدولة الأموية ولا في صدر الإسلام.. ! وقد كان لكثرة الجواري والقيان (وهن النساء غير الحرائر) وما كن عليه من فتنة ودراية بأساليب الاغراء وفنون الإغواء[3] من غير تحفظ ولا إحساس بالكرامة، كما كانت تحس المرأة العربية الحرة، أن زادت النار اشتعالاً فأذكى الشعراء، من أمثال أبي نواس ولداته في بغداد ومطيع بن إياس ورفقائه في الكوفة، وبشار في البصرة نار الفتنة في المجتمع العباسي كله، حتى عدَّ العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على مجتمعه وجيله.. !

على أن ما يجب النص عليه هو أن كل ما واجه أبو نواس في البصرة والكوفة من أحوال اجتماعية ومنجزات علمية وثقافية قد واجهه مرة أخرى في بغداد ولكن بصورة أكبر، وتأثير أعظم، كانا نتيجة لما طرأ على الحياة العباسية، بعد قيام بغداد، من جدة وطرافة في الآداب والاجتماع والفنون، وهكذا. أصبح أبو نواس في بغداد أكثر عطاء، وأعلى مقاماً، وأعظم تأثيراً، بقدر ما

---

(١) بلدان الخلافة الشرقية، لكي لسترنج ص٤٢.

(٢) العصر العباسي الأول، لعبد العزيز الدوري، ص٩٧. (٣) رسائل الجاحظ ٢/١٧١ «كتاب القيان».

أصبحت عليه بغداد، بعد أن غدت وريثة لمنجزات البصرة والكوفة الحاضرتين اللتين، إليهما يعود الفضل الأكبر في تكوين أبي نواس ثقافياً وفنياً فإن العلماء الذين تتلمذ عليهم أبو نواس، في كل من البصرة والكوفة، أما إنهم رحلوا إلى بغداد فأوطنوا بها لتزدان بهم مجالس الخلفاء والأمراء والأعيان، أو حتى يقوموا بتعليم ابناء تلك الطبقة الممتازة الآداب والثقافة العربية ويلقنوهم الغريب والشعر القديم، ومن لم يرحل منهم، ظل على صلة بعاصمة الخلافة يرحل إليها بين الحين والأخر، من هؤلاء العلماء، على سبيل المثال لا الحصر:

الكسائي الكوفي، الذي كان معلماً للرشيد وللأمين من بعده وكان كثيراً ما يرافق الرشيد في أسفاره[1].

ويحيى بن المبارك اليزيدي، الذي كان مؤدباً للمأمون ونسبه اليزيدي يعود إلى يزيد بن منصور الحميري لأنه كان يؤدب ولده[2].

أما الأصمعي البصري، صاحب المجموعة الشعرية المعروفة (الأصمعيات) فقد صحب الرشيد طويلاً[3]. وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر[4] وكان الشافعي يقول: (ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي)[5] وقد سامر من الأعيان كلاً من البرامكة[6]. وآل الربيع وهم وزراء[7].

ومنهم المفضل الضبي، صاحب المجموعة الشعرية (المفضليات) التي اختارها للمهدي حين كان معلماً له[9]. وكذلك، علي بن المبارك، وكان يؤدب الأمين، وكان مشهوراً بالنحو واتساع الحفظ[10].

أما الفراء، الكوفي، فقد خصه المأمون بأن أفرد له في قصره، موكلاً به جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه حتى يتفرغ لتأليف كتاب يجمع به أصول النحو[10].

والحقيقة إننا لا نكاد نسمع عن عالم، بغض النظر عن كونه بصرياً أو كوفياً إلّا وقد اختصه

---

(١) الورقة لابن الجراح ص٢٦ ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٦٧.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٢٨، ونفسه ص٨١.

(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٣١.

(٤) المصدر السابق نفسه ص١١٣.

(٥) المصدر السابق نفسه ص١٢١.

(٦) طبقات الشعراء لابن المعتز، ص٢١٤ وما بعدها.

(٧) نزهة الألباء ص١٢٠.

(٨) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٥٦.

(٩) المصدر السابق نفسه ص٩٧.

(١٠) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٩٩.

الخلفاء العباسيون وأعوانهم من وزراء وأعيان ورؤساء بالرعاية، فأبو عبيدة معمر بن المثنى، كان رفيق الأصمعي في الرحلة إلى الرشيد، كما كانا يجتمعان عند البرامكة أيضاً[1].

على أن هذا التقليد الذي استنه خلفاء بني العباس في إكرام العلماء وتفويضهم في تنشئة ابنائهم تنشئة أدبية، مرده إلى أن الدولة العباسية قامت على إثر ثورة اتخذت الدين لها شعاراً، وكان هم أولئك الخلفاء أن يبرهنوا بالدليل العملي، إنهم جاؤا إلى الحكم بسلطان إلهي لذلك كان تعزيز العربية والانتصار لها باعتبارها لغة القرآن الكريم جزءاً من هذه الغاية، فكان أولئك العلماء وجلهم إما بصريون أو كوفيون هم سمارهم تزدان بهم مجالسهم وهم الذين يقومون على تنشئة ابنائهم وابناء غيرهم من رجال الطبقة الحاكمة على رواية الأدب القديم، إلى جانب الدراسات الدينية. وقد تبع الخلفاء في هذا التقليد أعوانهم من الامراء والأعيان، فالبرامكة كانت مجالسهم تغص بالأدباء والشعراء، أو لنقل كانت لهم دولة غرة في جبين الدهر، أسواق الأدب عندهم نافقة حتى قال فيهم أبو نواس:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فُقْدتِمُ ... بني برمَكٍ من رائحينَ وغَادِي[2]

وقد جعلوا للشعر عندهم ديواناً اختاروا له الشاعر ابان بن عبد الحميد اللاحقي قيماً[3]. ويقول ابن خلكان (وقد مدح البرامكة جميع شعراء عصرهم)[4] ولذلك قال أحد الشعراء في الفضل بن يحيى:

ما لقينا من جُودِ فضل بْن يَحْيى ... جعلَ الناس كُلَّهم شعراءَ

وجاء آل الربيع بعد البرامكة فقلدوهم في التهوس بالأدب والعلم، يقول ابن الطقطقي عن الفضل بن الربيع: (لما ولي الوزارة تهوس بالأدب وجمع أهل العلم فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة، وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه فمن شعره في آل الربيع:

عبّاسُ عباسٌ إذا احتدمَ الوغَى ... والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ[5]

ونمضي إلى ما بعد البرامكة وآل الربيع فإذا أخلافهم من الوزراء والأعيان لا يقلون عنهم شغفاً بجمع الأدباء والعلماء في مجالسهم، فهذا وزير المأمون الحسن بن سهل نراه حين قدم العراق، يجمع بين طائفة من أهل الأدب فيهم أبو عبيدة والأصمعي ونصر بن علي الجهضمي[6].

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص١٠٦.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية، ص١٦١.

(٣) الوزراء والكتّاب، للجهشياري، ص٢١١.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٣٥.

(٥) الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧٢.

(٦) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص١٢١.

هذا وكان في جملة ما آل إلى بغداد ـ بالإضافة إلى من رحل إليها من شعراء وعلماء ـ المذاهب الاجتماعية والفلسفية التي كانت شائعة في البصرة والكوفة وإذا كان أبو نواس قد تمرس بمذاهب المتكلمين في شعره، وبالزهد في أواخر عمره، وبالمجون في مطلع حياته، فإنه حين رحل إلى بغداد في عصر هرون الرشيد، العامر بمختلف الاتجاهات الاجتماعية والمذاهب الأدبية واجه فيها تلك المذاهب مجتمعة، وهكذا وجدنا للفكر المعتزلي، الذي كانت نشأته في البصرة، فرعاً له في بغداد على رأسه المعتزلي الكبير بشر بن المعتمر (ـ٢٠٠هـ) معاصر أبي نواس، وقد أزهر بشر، كما يقول أحمد أمين، في أيام هرون الرشيد، أي في الوقت الذي فيه سطع نجم أبي نواس، كما كان على صلة بالفضل بن يحيى البرمكي[1] الذي كان يقدر أبا نواس كثيراً. وهكذا التقينا في بغداد بجدلية الحياة الاجتماعية مرة أخرى في صورة صراع اجتماعي ما بين الزهد والإيمان من جهة وبين المجون والزندقة من جهة أخرى، ففي بغداد تضاعفت الأسباب الثقافية والحضارية لظاهرة المجون والزندقة، على أن ذلك ليس معناه إن عامة الناس أو جمهورهم كانوا من المجان والزنادقة، وإنما كان المجون بين الفرس ومن معهم من الشعراء والمغنين في حين كانت العامة مسلمة حسنة الإسلام، تحيا على الكفاف، كما كانت ساخطة على ما كانت تحظى به الطبقة المترفة من نعيم وثراء فإذا كانت حانات الكرخ ودور النخاسة الكثيرة، تغص بالجواري والقيان والإماء فإن المساجد كانت عامرة بالعبّاد والنسّاك وأهل الصلاح والتقوى، ولقد كان الشعر صريحاً في موقفه من هذا التناقض الاجتماعي وهكذا وجدنا بعض الشعراء من الأشقياء الفقراء يصفون بغداد بأنها دار ضنك وضيق[2].

بغـدادُ دارٌ لأهـلِ المـالِ طيّبـةٌ ... وللمفـاليس دارُ الضَّنْـكِ والضيقِ
ظَلِلْتُ حيرانَ أمشـي في أزقـتهـا ... كأنّـني مُصْحَفٌ في بَيْتِ زِنْـدِيقِ

أما عند أرباب المال فهي دار رغد وهناء ونعيم:

أعانيتَ في طولٍ من الأرضِ والعَرْضِ ... كبـغـدادَ داراً إنّـهـا جَنَّـةُ الأَرْضِ[3]
صفـا العيشُ في بغـدادَ واخضَـرّ عودُهُ ... وعـيشُ سِوَاهـا غيرُ صافٍ ولا غَضّ

وهكـذا ففي الوقت الذي فيه تحول قصر الخلافة في عهد الأمين، إلى ملهى كبير للفرجة

---

(١) ضحى الإسلام، لأحمد أمين، ٣/١٤٦.

(٢) معجم البلدان، لياقوت الحموي، (بغداد).

(٣) المصدر السابق والمادة نفسها.

والمسليات بل المخـزيات[1]. وكـان فيه أبـو نواس أكبـر الـلاهين والعـابثين كانت هنـاك مجمـوعة من الشعراءِ يبيتون على الطوى ومعهم عيالهم. وذراريهم يتضورون جوعاً، ومرة أخرى نجد أبا نواس في بغداد، يخوض بشعره، وتجربته «الحياتية» وسط جميع التيارات الشعرية المتناقضة. فالزهد والاعتزال، اللذان واجهت بهما البصرة والكوفة، كل بمزاجها الخاص، ظاهرة المجون والزندقة واجهت بهما بغداد هذه الظاهرة أيضاً، إما بالشكوى كما عبّر عن ذلك مجموعة شعراء النزعات الشعبية من أمثال أبي فرعون الساسي[2]. وأبي الشمقمق[3] وأبي المخفف[4]، وإما بالزهد كما دلتنا على ذلك أشعار أبي العتاهية ومحمود الوراق[5]. وإما بالاعتزال، حين أخذ هذا الاتجاه الفكري الجاد، طريقه إلى بغداد، في جملة ما آل إليها من مواريث البصرة والكوفة.

والعجيب، أن يكون أبو نواس أوفر شعراء زمانه حظاً من هذه التيارات المتناقضة كما دلتنا على ذلك أشعاره، في المجون والخروج على مقتضيات الدين والأخلاق، وفي الفلسفة والزهد أيضاً، مما أكد لدينا بأنه ليس هناك شاعر تتقارب أسباب حياته من معطيات فنه، مثلما كانت حياة أبي نواس وكان فنه.

فأبـو نواس انتهى في بغـداد مؤمنـاً زاهداً فقيراً، من بعد أن مرَّ بمرحلة المجون والزندقة، والشعوبية ثم مرحلة الاعتزال، وأخيراً في بغداد مرحلة الزهد والتنسك..!

ولعلنـا بهـذا نكون قد أوضحنا كيف أنَّ بغداد، أضفت على حياة أبي نواس وفنه، مزاجها الخاص بكل ما انتهى إليها من تجارب الحواضر السابقة عليها، والتي تمرس بها أبو نواس من قبل، فرحلت معه إلى بغداد، ليكون هو وحاضرته الجديدة، على موعد مع القدر، حين كان أصدق وأصح شاعر عبّر عن مزاجها اللطيف وروحها الفكه وعقلها الكبير...!

ـ بيئـات أخـرى: الأهواز ـ البادية ـ الديارات

ومن البيئات ذات الأثر غير المباشر في تكوين أبي نواس ثقافياً وفنياً، وإن يكن تأثيرها أقل من تأثير البصرة والكوفة وبغداد، بيئات الأهواز والبادية والديارات.

أما الأهواز أو خوزستان، أي بلاد الخوز، فإقليم مشهور بوفرة مياهه ومحصولاته وغلاته[6]،

---

(١) الطبري، ٨/٥٠٩.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٧٦.

(٣) المصدر السابق نفسه ص١٢٦.

(٤) الورقة لابن الجراح ص١٢٢.

(٥) طبقات ابن المعتز ص٣٦٧.

(٦) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي، ص٤١٦.

ولكن مع فساد الهواء وسوء المناخ وكثرة الحشرات من أفاع وجرارات وعقارب[1]، مما أكسب أهل الإقليم فساداً في العقول ولؤماً في الطباع[2]. أما عن أثر ذلك في أبي نواس، فوصفه بأنه خوزي[3] على سبيل الشتم، إما بسبب أمه الفارسية الخوزية أو بسبب إقامته لمدة اثنتي عشرة سنة بالأهواز، كما يذكر أبو هفان[4] حيث تعلم مهنة العطارة فيها. على أن أظهر ما للأهواز عليه من أثر هو أن لغة أمه الفارسية وصلته بالآداب الفارسية مما جعله يفاخر كلما سنحت الفرصة له بأصله الفارسي، وبقومه الفرس، في مواجهة ما كان يتردد حوله من مفاخرات بالأحساب والأنساب بل لقد حاول بعض المحدثين أن يصفه بالطبع المتقلب، والجشع الشديد، ونكران الجميل، وخبث اللسان لأصله الخوزي الفارسي. لكن الذي لا شك فيه أن نشأته في حجر أم فارسية أهوازية، هذا إذا لم يكن لدينا ما يؤكد نسبه الفارسي، وصله كما قلنا بالفرس لغة وثقافة وأخلاقاً، ولذلك قال عنه ابن منظور: (ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال في العجم ما قال)[5]، وأيضاً: (وكان أبو نواس يفضل العجم ويمدحهم ويشتهي أن يذكر مناقبهم وآثارهم وأن يتزيا بزيهم ويظهر للناس أنه منهم)[6].

أما البادية مهد الأصالة العربية والنقاء العربي، فقد أمضى فيها عاماً كاملاً، وهي على النقيض من بيئة الأهواز الفارسية وبيئة الديارات حيث المجون وابتذال المرأة، وتبذل الرجل وضياع الكرامة، واحتدام الغرائز في أتون الشهوات والنزوات. أما عن سبب رحيله إلى البادية فقد كان باذن من استاذه وصفيه والبة بن الحباب[7]، أي أن رحلته إلى البادية كانت نهاية مرحلته في الكوفة وبداية لمرحلة جديدة من حياته عدها شوقي ضيق يقظة فكرية، في حين عدها العقاد (جمحة من جمحاته في مصاحبة الشطار)[8]. وأنا أعتقد أن هذا غير سليم، فالأصح أن يقال إن أبا نواس كان يمضي في تثقيف نفسه على نهج رسم خطوطه منذ عهد مبكر: فقد جاء رحيله إلى البادية بعد نحو عشر سنوات من مصاحبة المجان وعلى رأسهم ماجنهم الأكبر أستاذه والبة بن الحباب، وهكذا أراد أبو نواس أن ينهل اللغة النقية والأساليب العربية الصافية من منابعها الأصلية. وأما قول العقاد من أن رحلته إلى البادية كانت جمحة من جمحاته فما أظن أن هذا بصحيح، لأن في أرباض الكوفة

---

(١) الحيوان، ٤/١٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٤/١٤١.

(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٣٦.

(٤) أخبار أبي نواس، لأبي هفان ص١٠٩.

(٥) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٤٧.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٢/٣٦.

(٧) نفسه ١/١٢.

(٨) أبو نواس، للعقاد، ص١٠٦.

وأديرتها وفي سكك بغداد وأسواقها العامرة ومجتمعاتها الصاخبة وحاناتها الكثيرة ما يكفي لإشباع مثل هذا الجموح عنده، والدليل على صحة ما نقول، أن أبا نواس عاد بعد البادية مباشرة إلى البصرة قاصداً خلف الأحمر ليتعلم عليه بضوابط العلم الصحيح ما سبق له استيعابه في مختلف البيئات والمراحل التي مرَّ بها من حياته العامرة. وهكذا عادت عليه رحلته إلى البادية بتعميق معرفته بها وبـأحـوالها وأحوال ساكنيها المعيشية مختزناً في محفوظه الكثير من مأثور الشعر وغريب اللغة، والصور الطريفة من أسمار البدو في حلهم وترحالهم، ولا شك أن كل هذه الخبرات كانت عتاده فيما نظم بعد ذلك من المختارات الشعرية في باب الصفات والطرديات[1].

أما الديارات، جمع دير وهو خان النصارى[2]، فمع أن مهمتها الرئيسية هي العبادة، ولكنها كانت في ذلـك العهد تكاد تستقل بشؤونها المعيشية والسكنية، هذا إلى ما كانت تنشط له من الاحتفالات بالمناسبات الدينية التي أصبحت فيما بعد أشبه بالأعياد الوطنية. وقد امتدت علاقة أبي نواس بالأديرة إلى جميع البيئات التي تقلب بين ربوعها، ولكن أشهرها ولا شك هي الأديرة التي كانت ملاصقة للحواضر[3]، مثل بغداد والحيرة[4]. هذا وعادة ما تشتمل الأديرة على جملة من المنشـآت هيأها لأن تكون دور عبادة ومعيشة وضيافة وتسلية أيضاً من هذه المنشآت: (الكنيسة والهيكل والقلالي وبيوت المائدة ومستودعات الخمور والبساتين ومعاصر الكروم ودور الضيافة وحجر الرهبان وحجرة لرئيس الدير الذي يشرف على تنظيمه. ويحف بالدير أحياناً بنايات مرتفعة يسكن كل واحد منها راهب، يقال لها القلالي أو القليات ومفردها على الأول قلية وعلى الثانية قلاية. ومعناها الصومعة، وقد تكون هذه القلالي في داخل الدير خلف سوره)[5].

وربما كانت هذه اللفظة «قلية» في الأصل خلية وجمعها خلايا لأنها تشبه الخلايا في شكلها وانتظامها حول الدير.

بل أكثر من هذا أن الدير يكاد يكون مستغنياً بنفسه عن العالم الخارجي، لما فيه من زرع وصناعة وتربية دواجن وكأنه وحدة سكنية قائمة بنفسها تحفل بجميع المرافق المدنية والمعيشية التي يحتاج إليها سكانه من الرهبان: وليس من شك في أن قصد الشعراء وأهل اليسار الديارات، قد

---

(١) الحيوان، ٢/٢٧.

(٢) لسان العرب، والقاموس المحيط (دير).

(٣) معجم البلدان، لياقوت (دير).

(٤) الديارات وملحقاتها، لشكري محمود أحمد: مجلة الرسالة ـ العدد ٧١٣ ـ ١٣/٣/١٩٤٧.

(٥) المصدر السابق نفسه.

أنعش الحالة الاقتصادية للأديرة فجعل أهليها يحسنون صناعة ما يقدمون لمرتادي أديرتهم من أنواع **الطعام** والشراب والتسلية أيضاً.

ومن يراجع الشعر العربي الذي قيل في هذه الأديرة يخيل إليه أن هؤلاء الرهبان في أديرتهم قد تحولوا إلى مضيفين من الطراز الأول بما كانوا يوفرونه لضيوفهم من أجود أنواع الخمور المعتقة وأطيب المآكل والمشارب وهكذا أصبحت الحانة مكملة للدير (فكان يقصد إليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والمجان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة في الآنية النظيفة الأنيقة على الوجوه الحسان بين الرياض والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين وعلى قرع النواقيس وأنغام التراتيل والقراءات في المزامير والأناجيل..)[1].

وإذا كان الدير على ما وصفنا فهل كان أبو نواس وقبله الوليد بن يزيد وعصاباتهما من المجان يلجأون إلى هذه الأديرة إلا للتنزه والمتعة والشراب والغناء والنساء وغير النساء أيضاً.

ولا نريد أن نستبق الكلام عن أثر الديارات في شعر أبي نواس وإنما مكان ذلك في دراسة شعره غير أن الذي نريد أن نؤكده أن الديارات تحولت عند أبي نواس إلى موضوع شعري كبير.. وإنما أقصد بالديارات جميع أحوالها المعيشية والاجتماعية بالإضافة إلى طقوسها الدينية أيضاً..!

ـ عناصر ثقافته ومقوماتها الأساسية :

كانت ثقافة أبي نواس تركيبة عجيبة ألمت بكل ثقافة العصر وتياراته المختلفة، مما كان يدور فيه من أفكار تقليدية عربية[2] وإسلامية تلقاها من بيئته العربية الإسلامية، وأفكار أخرى وافدة من هندية وفارسية ويونانية ومجوسية ويهودية ونصرانية، ولذلك خرج واحد عصره كما يقول ابن المعتز[3]. ومع أن الشعر هو الصفة الغالبة عليه، فإن الكُتّاب يذكرون أن أقل ما كان فيه هو الشعر[4]، ولذلك كثرت ألقاب التبجيل والتقدير التي أسبغت عليه أو أضيفت إلى اسمه، (يقول

---

(١) أبو نواس: قصة حياته، لعبدالرحمن صدقي، ص١١٢.

(٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص٧٧٣ وموقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، لمحمد زكي العشماوي، ص١٧٩.

(٣) طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص١٩٤.

(٤) النجوم الزاهرة، لابن تغري بردى ٢/١٥٦. وأخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥٣ وأعيان الشيعة لمحسن الأمين، ٢٤/١٢.

إسماعيل بن نوبخت ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه. .)[1]، فهو شاعر. . . ومحدث. . . وراوية. . . ونحوى. . . ولغوي وفيلسوف وعارف بعلوم العصر إلى جانب اهتمامات أخرى كالصيد ولعب النرد والشطرنج ومعرفة بالكلاب والعزف على العود[2]، ثم خطيب مفوه، ومحدث لبق يروع سامعه وشاهده. . ولكن المحصلة الأخيرة كانت في شعره حيث نلتمس فيه آثار هذه الثقافات المتنوعة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لأن شعره هو الأثر الوحيد الباقي له، فلم نسمع أن لأبي نواس مؤلفاً آخر[3].

ولم يؤثر عنه غير الشعر إلّا أحاديث قليلة، أو تعاليق عابرة لا تخرج عن نطاق الشعر. وعلى كل فنحن نستطيع أن نصنف هذه الثقافة العريضة إلى ثلاثة أصناف:

ـ ثقافة تقليدية من عربية وإسلامية:

ـ ثقافات أخرى من فلسفة وعلوم وديانات أخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية.

ـ وثقافة ثالثة لا تدخل في عداد المفهوم التقليدي للثقافة وإنما هي ثقافة عملية يكتسبها الإنسان عادة بالخبرة والتجربة والممارسة الشخصية وبالاختلاط المباشر.

أما عن الثقافة التقليدية من عربية وإسلامية، فإن مصادر هذه الثقافة متعددة ومتنوعة حيث أتيح لأبي نواس التوفر عليها من ينابيعها الأصلية في مدينة البصرة التي كانت، كما يقول ابن المعتز عنها (أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً)[4]. من المسجد الجامع ومن سوق المربد، وأحسن اساتذة العصر وأعلاهم كعباً، ثم من مهد هذه الثقافة نفسها في بادية بني أسد. . .ثم من الندوات والحلقات الأدبية الكثيرة التي كان يحضرها أبو نواس كما نتبين ذلك من أخباره ومطارحاته مع الشعراء والأدباء.

على أن الذي يتضح لي أن أبا نواس كان ينتهج في تثقيف نفسه خطة مدروسة ومنهجاً مرسوماً، منذ كان في سوق العطارين فتى غض الأهاب، ويتردد في أثناء ذلك على حلقات الدرس في المسجد الجامع وعلى سوق المربد لمشافهة الأعراب هناك، مروراً برفقته والبة بن الحباب إلى الكوفة، وتعرفه على أدبائها وشعرائها ومجانها وقيانها، مع تردده أثناء ذلك على ما حول الكوفة من أرباض ودير وحانات. . ! ثم رحيله إلى صحراء بني أسد وقضاؤه عاماً كريتا بين الأعراب للأخذ عنهم اللغة البدوية النقية والتمرس بحياتهم ثم عودته إلى البصرة والجلوس إلى الدرس الجاد

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ٢/٩٦.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٩٢، والحيوان، ٢/٢٧.

(٣) ديوان أبي نواس، . ١/٢٣ ط فاغنر.

(٤) طبقات ابن المعتز ص٢٠١.

المنظم على أعظم أساتذة العصر وفي طليعتهم استاذه البار خلف الأحمر حتى خرج كما يقولون وحيد عصره. يقول ابن المعتز[1]:

(كان أبو نواس عالماً فقيهاً عارفاً بالأحكام والفتيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه. وقد تأدب بالبصرة وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين من أوائل الإسلاميين والمحدثين).

فأبو نواس، إذن متنوع الثقافة، ما بين علوم الدنيا، وعلوم الدين، حتى إن بعض المؤرخين يسندون إليه رواية بعض الأحاديث، فالحافظ ابن عساكر يسند إلى أبي نواس عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي (ﷺ) أنه قال: (لا يموتن أحدكم حتى يحسن ظنه بربه، فإن حسن الظن بالله تعالى ثمنه الجنة)[2].

وكذلك أسند إليه قوله:

(حدثني حماد عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة)[3]. كذلك ينقل ابن منظور عن أبي نواس إن الإمام علي بن موسى روى لأبي نواس حديثاً عن الرسول بسنده عن أسلافه قائلاً: (حدثني أبي عن جدي الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه علي عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن محبينا إذا راموا الثناء علينا والمحبة لنا أيدهم الله بروح القدس)[4].

وإذن فالعلوم الدينية من قرآن وحديث كانت لب ثقافته التقليدية، ففي علم الحديث يذكر ابن عساكر أنه سمع الحديث عن:

(حماد بن سلمة وحماد بن زيد وعبد الواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان ويحيى القطان وأزهر بن سعد السمان وعنه روى الحديث: محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي وعبيدالله بن محمد العبسي ومحمد بن جعفر غندر وأحمد بن حمزة بن زياد الربعي وعمرو بن بحر الجاحظ ويعقوب بن زيد الفارسي ومحمد بن إدريس الإمام الشافعي وجماعة سواهم)[5].

---

(١) طبقات ابن المعتز، ص٢٠١.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر، ٤/٢٥٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٤/٢٥٨.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٧٤، ٧٥.

(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر، ٤/٢٥٧، وتاريخ بغداد، ٧/٤٣٦.

وفي علوم القرآن نتبين من نص سابق لابن المعتز[1]، أن معارفه الدينية كلها جوهرها القرآن الكريم، فقد قرأ القرآن على يعقوب الحضرمي، حتى حذقه، عندئذ (رمى إليه يعقوب بخاتمه وقال له: اذهب فأنت اقرأ أهل البصرة)[2].

وأما في العلوم العربية، فقد كان يختلف إلى أبي زيد النحوي (فكتب عنه الغريب والألفاظ وحفظ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أيام الناس ونظر في نحو سيبويه)[3].

والجاحظ ينزل أبا نواس منزلة عظيمة من ادباء وعلماء عصره حين يقول: (ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة للاستكراه)[4].

أما ابن قتيبة، فقد كان يسوغ ما يلحن به أبو نواس في شعره من أنه لا بد أن يكون (على حجة من الشعر القديم وعلى بينة من علل النحو)[5]. ومثله ابن منظور حيث يذكر له جملة من الأخطاء يجد لها وجوهاً من الصحة (فعلمت أنه لا يقول شيئاً إلّا عن علم وصحة بما يقوله)[6]. حتى وجدناه ينسب إحدى مدائحه في الفضل بن يحيى البرمكي إلى الخليل لخلوها من أي خطأ عروضي، وإلى قطرب النحوي لخلوها من أي خطأ نحوي وذلك حيث يقول:

خَلِيلِيَّةٌ في وزنِـهـا قُطْرُبِـيَّةٌ نظَائِـرُهَـا عِنْـدَ المُلوكِ عَتَـادِي

ويعلق ابن منظور على هذا البيت قائلاً:

(ولم يذكر قطرباً النحوي فيها إلّا لأنه يرى رأيه وكان رأيهما الاعتزال وهو رأي النظام . . .)[7].

ولقد عادت ملازمة، أبي نواس لخلف الأحمر عليه، بعد فراقه والبة بأعظم الفوائد العلمية يقول ابن المعتز:

(وكان خلف أشعر أهل وقته وأعلمهم فحمل عنه علماً كثيراً وأدباً واسعاً)[8]. وهكذا عد أبو نواس (أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين)[9]. كما ينقل عنه قوله: (أحفظ سبعمئة ارجوزة وهي عزيزة في أيدي الناس سوى المشهور عندهم)[10] وينقل «ابن

---

(١) طبقات ابن المعتز، ص٢٠١.
(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٦/١.
(٣) تاريخ بغداد، ٤٣٦/٧.
(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٦/١.
(٥) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص٧٩٤.
(٦) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١٦٣/١، ٩/٢
(٧) المصدر السابق نفسه، ٦٩/٢.
(٨) طبقات ابن المعتز، ص١٩٤.
(٩) المصدر السابق نفسه، ص٢٠١.
(١٠) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

عبد ربه» عن أبي نواس قوله أيضاً: (رويت أربعة آلاف شعر وقلت أربعة آلاف شعر فما رزأت الشعراء شيئاً)[1] . وكذلك يذكر ابن منظور أن أبا نواس كان يقول: (ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال وإني لأروي سبعمئة أرجوزة ما تعرف)[2] .

وبعد هذه الدراسات الجادة تحول أبو نواس إلى النوادر والطرائف (فلما فرغ أبو نواس من أحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والملح فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس)[3] . واضح أن أبا نواس كان يجمع في ثقافته بين المتقابلات بل بين المتناقضات إن لم تكن في جوهرها ومضمونها ففي غايتها ومقصدها . . . ! كذلك استطاع أن يزاوج بين شقي ثقافته التقليدية: الإسلامي والعربي، ليحوك منهما صيغاً وأساليب لم يستطع مثلها شاعر آخر ومنها مدائح باهرة كانت تروق لممدوحيه من خلفاء ورجال دولة، وتظهر مهارته خاصة في استغلال المعاني القرآنية التي كان يطعم بها شعره ليزيده رونقاً وبهاء بل ربما استخدم الألفاظ القرآنية ببراعته الشعرية المعهودة من تقديم وتأخير وإضافة أو حذف وهو كثير في أشعاره من ذلك أنه رأى مرة غلاماً سليحاً يؤم الناس وهو يردد قوله تعالى: ﴿**أرأيت الذي يكذب بالدين**﴾ فقال أبو نواس[4]:

وقَرا مُعْلِناً ليصدعَ قلبْي ... والهوى يصدَعُ الفُؤادَ العَزُوما
أرأيْتَ الذي يُكَذبُ بالدِّين ... فذاكَ الَّذي يَدُع اليْتيمَا

واجتمع أبو نواس وجماعة من الشعراء منهم مسلم بن الوليد والحسين الخليع فقال بعضهم: (أيكم يأتيني ببيت شعر فيه آية من القرآن وله حكمه. فأخذوا يفكرون فيه فبادر أبو نواس فقال[5]:

وفتيةٍ في مَجْلس وجوهُهُم ... رَيْحانُهُمْ قَدْ أمنُوا الثَّقيلاَ
دانيةٌ عليهِمُ ظِلاَلُهَا ... وذُلِّلتْ قطوفُهَا تَذْلِيلاَ

وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿**ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا**﴾[6].

وكان يساير يوماً الحسين بن الضحاك بالكوفة بكتاب وإذا صبي يقرأ: ﴿**كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾[7].

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ٥/٣٠٩.
(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥٤.
(٣) طبقات ابن المعتز، ص٢٠١.
(٤) طبقات ابن المعتز، ص٢٠٦.
(٥) المصدر السابق نفسه ص٢٠٧، وأخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص٦٨.
(٦) القرآن الكريم: سورة الإنسان ـ آية ١٤.
(٧) القرآن الكريم: سورة البقرة ـ آية ٢.

فقال: أي معنى يستخرج من هذا في الخمر فقال له الحسين: ألا تتقي الله بكتاب الله عز وجل، فلما كان الغد أنشد الحسين قوله:[1]

وسيّارةٍ ضلَّتْ عن القصدِ بعْدَما ... ترادَفَهُم جُنْحٌ من الليلِ مُظْلِمُ
فاصغَوْا إلى صوتٍ ونحن عِصَابةٌ ... وفينا فتىً من سُكْرِهِ يترنَّمُ
فلاحَتْ لهم منّا على البُعْدِ قَهْوةٌ ... كأنّ سَنَاها ضوءُ نارٍ تَضَرَّمُ
إذا ما حَسَوْناها أناخُوا مَطِيَّهمْ ... وإن مُزِجَتْ حَثّوا الرِّكابَ ويَمَّمُوا

وفي ختام هذا العرض لا يفوتنا أن نذكر أن الأسلوب المنهجي الذي اتبعه خلف الأحمر في تدريب أبي نواس على صناعة الشعر، مغاير للأسلوب الفني العملي الذي اتبعه والبة بن الحباب، حين اكتفى بوصله بتيارات الشعر الحديث في بيئة مجان الكوفة وظرفائها، أما خلف فقد أقام أسلوبه على الالتزام بالتقاليد الأدبية الأصلية، من ذلك أنه لم يسمح لأبي نواس أن يقول الشعر إلّا بعد أن يحفظ ألف مقطوع من الشعر ثم ينساها[2]، وهي طريقة عجيبة تجمع بين العلم والفن وبين النظر والعمل، وتكشف عن فطرة فنان وعقل عالِم حين قصد أن يخرج أبا نواس شاعراً لا راوية، وهكذا تكفل كل من والبة وخلف الأحمر بجانب من تكوين أبي نواس الثقافي، مما أتاح لشاعرنا الجمع بين الأساليب التقليدية والتجديدية ليبرز فيها جميعاً، فإذا أضفنا إلى ذلك ما عرضنا له من جهوده الشخصية في تحصيل العلوم والمعارف تبينا علة تفوقه وإبداعه في مختلف الفنون الشعرية تقليدية وتجديدية حتى لقد قيل فيه، كان أقل ما فيه هو الشعر لسبب بسيط هو أن صناعته الشعرية كانت ترفدها موارد ثقافية لا ينضب لها معين كانت عونه في كل موضوع، وكل فن وكل مناسبة، ولذلك كانت المساحة التي شغلتها موضوعات شعره من السعة بحيث لم تشغلها موضوعات شعر أي شاعر آخر معاصر له.

ـ ثقافات أخرى من فلسفة وعلوم وديانات:

يقول نيكلسون واصفاً الحماسة للتعلم في صدر الدولة العباسية[3]. . (ولقد صحب هذا التوسع المادي انفجار فعالية عقلية لا عهد للشرق بها من قبل أبداً، وبدا كما لو أن العالم جميعاً من الخليفة إلى أوضع مواطن قد أصبحوا فجأة طلاباً على الأقل حماة للأدب. وفي طلاب المعرفة

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٢/٧٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١/٥٥.
(٣) تاريخ الأدب العباسي ص٥٣، ترجمة صفاء خلوصي، بغداد ١٩٦٧.

كان الناس يسافرون عبر ثلاث قارات ويعودون إلى أوطانهم كنحل مثقل بالعسل لينقلوا المكتنزات الثمينة التي اختزنوها إلى جماهير المريدين المتلهفة ويؤلفوا بجهد لا يصدق المؤلفات ذات النطاق والاطلاع الموسوعي تلك التي استمد منها العلم الحديث بأوسع معانيه أكثر مما يظن بصورة عامة . .) .

ولعـل أبا نواس كان من ألمع هؤلاء المريدين في تلهفه على مختلف العلوم خارج النطاق الأدبي واللغوي حتى إن ذلك ليظهر في شعره بوضوح . ويلقانا اهتمامه بالعلوم الفلسفية منذ عهد مبكر من حياته فقد كان ذا فكر متفتح للعلم شغوفاً بالمعرفة والدرس ذا قدرات غير عادية للاستيعاب والـدرس والتحصيل حتى أصبحت ثقـافته كما قدمنا تركيبة عجيبة من مختلف العلوم والمعارف الشائعة في عصره، حتى ظهر ذلك في شعره وفي مطارحاته الفكرية والأدبية مع إخوانه . جاء في مقدمة ديوان شعره برواية حمزة الأصفهاني :[1] : (قال أبو حاتم سمعت أبا عبيدة يقول : استفصحت غلامين في الصبى فزكنت فيهمـا بلوغ الغـاية فيما ينتحلانه فجاء كما زكنت، بلغني أن النظام يتعاطى تعلم الكلام، فتلقاني وهو غلام على حمار يطير به فقلت له : يا غلام! ما طبع الزجاج، فالتفت إليَّ وقال: يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر. ثم بلغني أن أبا نواس يتعاطى قرض الشعر فتلقاني وهو سكران ملتخ ماطر شاربه بعد، فقلت له : كيف فلان عندك؟ فقال : ثقيل الظل جامد النسيم . فقلت : زد فقـال : مظلم الهـواء منتن الفنـاء . فقلت : زد . قال : غليظ الطبع، بغيض الشكل . فقلت : زد . قال : وخم الطلعة عسر القلعة . قلت : زد . قال : نابي الجنبات بارد الحركات فخففت عنه فقال : زدني سؤالاً أزدك جواباً . فقلت : كفى من القلادة ما أحاط بالعنق) .

واضح أن في أجوبة أبي نواس فكراً عميقاً متفتحاً على الفلسفة وغيرها من علوم العصر، يقول ابن منظور في معرض الحديث عن خط سير تعلمه (. . . واشتهى الكلام، فقصد إلى أصحابه فتعلم منهم شيئاً من الكلام . . .)[2] وأيضاً واصفاً ما انتهى إليه من علم وثقافة (. . . وكان أبو نواس متكلمـاً جدلاً راوية فحـلاً، رقيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف . . .)[3]، فإذا عرفنا أن المتكلمين كانوا، على ما يذكر الجاحظ، (يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك . . .)[4] استطعنا أن نقف على مدى ما كان لأبي نواس من ثقافة واسعة، في مختلف الفنون والعلوم التي كانت شائعـة في زمـانه . ويظهر اهتمام أبي نواس بالفلسفة وعلم الكلام أنه صحب وهو صبي

---

(١) ديوان أبي نواس، ١/٢٢ تحقيق ايفالد فاجنر. (٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٦.

(٣) نفسه ١/١٣. (٤) الحيوان، ٤/٣٢٠.

النظام، وأخذ عنه ثم فارقه لأن النظام كان يدعو إلى القول بأن الكبائر مخلدات في النار ففارقه أبو نواس وهجاه ومما قال فيه قصيدته الإبراهيمية «المشهورة»:

دَعْ عنك لومي فإنَّ اللومَ اغراءُ وداوني بالّتي كانتْ هِيَ الداءُ[1]

ومن شغف أبي نواس بالفلسفة يذكر أبن المعتز أن مذهبه، كان في الأول الفلسفة ثم انتقل إلى الشعر، على عكس النظام[2]. وهكذا جاء وصفه بالمتكلم الجدل إلى جانب الرواية ورقة الطبع.

والشواهد على آثار الفلسفة في شعره كثيرة منها قوله[3]:

وذاتِ خَدٍّ مورَّد فِضّية المتجَرَّدْ
تأمَّلُ العينُ منها مَحاسِناً ليس تَنْفَدْ
فبعضُه قد تناهَى وبعضُه يتولَّدْ
والحُسنُ في كُلِّ شيءٍ منها مُعَادٌ مَرَدَّدْ

وقد أوحى قول أبي نواس:

سُبْحانَ من خلق الخلق من ضَعيفٍ مَهينِ
فساقه من قرار إلى قرارٍ مكينِ
في الحُجْبِ شيئاً فشيئاً تَحارُ دون العيونِ
حتى بدَتْ حركاتٌ مَخْلُوقَةٌ من سُكونِ

إلى النظام أن يضع كتاباً في الحركة والسكون: (لما سمعت هذه الأبيات نبهتني لشيء كنت غافلاً عنه، حتى وضعت كتاباً في الحركة والسكون)[4].

كذلك فإن النظام لاحظ أن في قول أبي نواس:[5]

يا عاقد القلب عني هلاَّ تذكَّرَت حَلاَّ
تركْتَ منّي قليلاً من القليلِ أقَلاَّ

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١٧/٢.

(٢) طبقات ابن المعتز، ص٢٧١.

(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١٣/١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٢٢٣/١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١٣/١.

يكـادُ لا يتَـجَـزَّأ أقَـلُّ في الـلفظِ مِنْ لاَ

من دقة النظر الفلسفي ما ليس في كلام الفلاسفة أنفسهم. يقول النظام لأبي نواس: (أنت أشعر الناس في هذا المعنى والجزء الذي لا يتجزأ منذ دهرنا الأطول نخوض فيه، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت فيه في بيت واحد)[1].

والجـزء من ألفـاظ المتكلمين التي (ليست في كلام غيرهم مثـل الكيفية والكمية والمـائية والكمون والتولد والجزء والطفرة وأشباه ذلك)[2].

(والجـزء ما ينقسم إليه الجسم ولهم في الجـزء الذي لا يتجزء كلام كثير فمنهم من يقول به ومنهم من يـبطله[3] كمـا لاحظ بعض النقاد المحدثين على أبي نواس استغلاله لنظرية (التحول بالقدم من مادة ذات جثمان إلى جوهر نوراني لطيف هو الروح والأصل فهو موجود وكأنه غير موجود)[4].

بل لقد تجاوز أبو نواس بثقافته مجال الإنسانيات إلى ما كان شائعاً في عصره من علوم بحتة، وليس هـذا بغريب إذا نحن عرفنا أن علماء الكلام، كانوا كما يذكر «الجاحظ» يحبون أن يعلموا كل شيء (ويأبى الله ذلك) وهكذا وصله علم الكلام بالعلوم والمعارف التي كان المتكلمون معنيين بها من هندية ويونانية، هذا بالإضافة إلى الثقافة الفارسية بحكم فارسيته أو فارسية أُمه، مما أشاع الكثير من الألفـاظ الفـارسية في شعره. يقول ابن قتيبة[5]: (وكان أبو نواس متفنناً في العلم، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب، ونظر مع ذلك في علم النجوم، يدلك على ذلك قوله:

ألـم ترَ الـشَّـمسَ حلّتِ الـحَمَـلاَ وقـامَ وزْنُ الـزَّمـانِ فاعْـتَـدَلاَ
وغَـنّـتِ الـطيرُ بعْـدَ عُجْـمَـتِـهَـا واستـوفتِ الخمـرُ حَوْلَهـا كَمَـلاَ

وكان بعضهم يذهب إلى أنه أراد أن للخمر حولا، فقد جرى الماء في العود، وجعل ذلك الماء هو الخمر، لأنه يصير عنباً فيعصر. . .).

كما يستدل «ابن قتيبة» أيضاً على علمه بالنجوم من قوله، في قصيدة أولها:

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٤٩.

(٢) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاب ص١٩٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٣٥.

(٤) تاريخ الشعر العربي، للبهبيتي، ص٤٤٠. (٥) الشعر والشعراء، ص٧٧٣.

أعْـطتَـكَ رَيْحـانَـهـا الـعُقَـارُ وحـانَ من ليلِكَ انْـسـفَـارُ[1]

ثم وصف الخمر فقال:

تُخَـيِّرتْ والـنـجـومُ وَقْـفٌ لم يَتَـمـكّـنْ بهـا الـمَـدَارُ

ولعل مديحته في الوزير يحيى بن خالد البرمكي، من خير النماذج دلالة على ثقافة أبي نواس الواسعة في أساطير وآداب الأمم الأخرى، خاصة أنه زاوج في تلك المدحة ما بين الكثير من الرموز والإشارات الفارسية وممدوحه الفارسي الذي كان من أعلم الناس بتلك الرموز والإشارات أيضاً[2]. أما عن معرفته بشعائر الديانات الأخرى وأحوال أهليها وتقاليدهم وعاداتهم فقد تكفلت خمرياته وغزلياته، خاصة غلمانياته وغلامياته بالكشف عن هذا الجانب المثير من ثقافته، سنذكر ذلك تفصيلاً في مكانه من هذا البحث إن شاء الله.

وهنا لا بد من وقفة حيال ثقافة أبي نواس خارج دائرة المعارف التقليدية، لنقرر أن هذه الثقافة اقترنت بأمرين اثنين على جانب كبير من الأهمية، أولهما طغيان حضارة مادية صارخة مع سيادة الطوابع الفارسية، والثاني تنامي ظاهرة الحرية في مناقشة الاعتقاد عند المسلمين من بعد أن كان المسلم في صدر الإسلام وعهد بني أمية، يصدع لما يتلقى من أوامر الدين بالتسليم والقبول، من غير استخدام للاقيسة والبراهين التي تعلمها من الجدل والفلسفة[3]. وهكذا أخذ الجدل الديني في الأصول العقيدية طريقه إلى الحياة الفكرية الإسلامية[4]. وكان على كل متكلم ينافح عن دينه أن يتسلح بالفلسفة. حتى إن الجاحظ يقول: (ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة)[5].

ولقد أدت هذه الحرية العقلية في الجدل نتيجة لكثرة ما ترجم من اللغات الأخرى إلى العربية، ولاتصال المسلمين بالديانات الأخرى من يهودية ونصرانية وديانات الفرس التي عوملت في هذا العصر معاملة الديانات السماوية فوسع نطاق أهل الذمة[6]، أدت هذه الحرية إلى تطوير الفكر

---

(١) الشعر والشعراء، ص٧٧٤.

(٢) أبو نواس، قصة حياته، لعبد الرحمن صدقي، ص١٣٧.

(٣) أدب المعتزلة، لعبد الحكيم بلبع، ص١٠٤.

(٤) العصر الإسلامي، لشوقي ضيف، ص١٩٠.

(٥) الحيوان، ٢/١٣٤.

(٦) تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتي، ٢/٤٣٩.

الإسلامي وظهور تيار جديد من الفكر لم يكن مألوفاً من قبل، هو الزندقة، التي أصبحت ردفاً للثقافة أو علامة عليها وعلى التمدن[1] لاقتران الزندقة في ذلك الوقت بالبحث العلمي[2]، حتى كان البعض يتظاهر بالزندقة تظرفاً ليثبت أنه مساير لروح العصر. قال محمد بن مناذر الشاعر لمحمد بن زياد:

يا ابنَ زيادٍ يا أبا جَعْفرٍ ... أظهرْتَ دِيناً غير ما تُخْفِي[3]
مُزَندقُ الظّاهرِ باللّفظِ فِي ... بَاطنِ إسْلام فَتىً عَفَّ
لسْتَ بزنديقٍ ولكنَّما ... أردْتَ أنْ توصَفَ بالظَّرْفِ

من أجل هذا قلما وجدنا شاعراً نابهاً إلاّ وكانت تربطه بالفكر المعتزلي علاقة ما.

أما أبو نواس فقد طلب الكلام في أول عهده وانتهى شاعراً، غير أن ثقافته الواسعة انتهت به، شأن الكثير من المعاصرين له، إلى الجدل الديني الذي لم يستقر به على حال، فيما لا يتفق مع أوامر الدين ونواهيه، مما جعل الناس يرمونه بالزندقة أو الكفر، ولكن من غير أن يثبت عليه زندقة ولا كفر، وإنما هي أحوال عارضة كانت تعترضه بين الحين والآخر لا يلبث بعدها طويلاً أن يعود إلى جادة الصواب معترفاً بأن المجون يغلب عليه[4].

ولعل ما في شعره من خروج على الاعتقاد الصحيح لم يعد أن كان تنفيساً عن أزمات داخلية، شخصية أو أسرية أو اجتماعية.

ـ ثقافته العملية:

وهذه الثقافة غير المكتوبة، وغير المقروءة أيضاً، هي الثقافة التي يباشرها الإنسان بنفسه من غير أن يتوسل إليها بكتاب أو صحيفة أو دراسة منتظمة، هي ثقافة الحياة... ثقافة العادات المكتسبة والأخلاقيات المقبوسة والتقاليد الموروثة التي يتلقاها الإنسان من محيطه أو ممن يعايشهم وتجمع بينه وبينهم اهتمامات مشتركة وهوايات واحدة، أو العكس أيضاً.

وقد تنوعت مصادر هذه الثقافة تبعاً لتنوع الأجواء والبيئات الاجتماعية والمكانية التي تقلب فيها الشاعر على أن هذه الثقافة هي الكفيء العدل لثقافته الفكرية والأدبية وكأنما حياته منذ ولادته

---

(١) الحضارة الإسلامية، لفون كريمر، ص١٠٧، ترجمة مصطفى طه بدر.

(٢) ضحى الإسلام، ١/٤٤.

(٣) الأغاني، ١٨/١٨٢ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٢٢٨.

بالأهـواز حتى ممـاته في بغداد قد انشطرت إلى خطين مستقيمين: خط فكري نظري وخط آخر سلوكي عملي بينهما كان يتردد الشاعر في وجدانه وفكره وفي نزوعه ونزوته، بل إن هذين الخطين ليمتزجان ليكونا لنا الشخصية النواسية العجيبة بكل أشواقها العالية ورذائلها الساقطة. ولم يكن هذا الأمـر بخـافٍ على الأقـدمين وإنمـا ترجموه بصور أصبحت مفهومة لنا تماماً نلتمس فيها المعنى النواسي دون غرور، ودائماً كنا نجد في شخصية أبي نواس المعجب والمنفر، المقبول والمرفوض، ومثـل هذا الصراع الجدلي في حياة أبي نواس مثال نادر الوجود بين المعاصرين له من الشعراء. لذلـك اتسمت الشخصية النـواسية بهذه المتناقضات المتعادلة إن جاز لنا القول، غير انها كانت تعبيراً مستقلاً عن هذه الشخصية المتميزة منسجمة مع أخباره، ومحققة تماماً لوجوده ولكنها غالباً ما اصطدمت بالكثير من الأوضاع المتعارف عليها، والتقاليد المتوارثة، والشرائع المسنونة.

يقـول ابن منـظور: نقلاً عن الجاحظ: (ولما شب اسلمته امه براء يبري عود البخور ثم كبر وتـأدب وصحب أهـل المسجـد والمجـان)[1]. ومعنى تأدب أي تعلم وتثقف ولكن ما هو معنى وصحب أهـل المسجـد والمجـان فأهـل المسجد هم من الزهاد والصوفية والقراء وأهل الصلاح والتقوى، وأما المجان فهم أهل الفسق والفجور والخمر فكيف يصحب أبو نواس هاتين الطائفتين معاً؟ كيف يجمع بينهما؟ كيف يعيش مع المجان وهو من أصحاب أهل المسجد؟ فهل يستطيع مجـاراتهم ثم هل يقبـل أهل المسجد صحبته إذا كان من المجان؟ ونمضي بعد ذلك مع النص لنقـرأ... (اشتهى الكلام فقعد إلى أصحابه فتعلم منهم شيئاً من الكلام ثم دعاه ذلك إلى الزندقة)[2].

وعلم الكلام الذي طلبه أبو نواس هو الذي دافع به أهلوه عن بيضة الإسلام حين كانوا يقفون للزنادقة بالمرصاد مصطنعين حججهم متوسلين بوسائلهم. أما أن يدعو علم الكلام إلى الزندقة فهذه مسألة ما كانت لتجوز إلّا عند أبي نواس ورفقائه من مثقفي جيله وأخوانه من المجان والزنادقة[3]:

ويقول ابن المعتز الذي يصفه بأنه واحد زمانه بعد أن يقدم لمحفوظه من الاراجيز. (فلما فرغ أبو نواس من أحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والملح فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس ثم أخذ في قول الشعر فبرز على أقرانه وبرع على أهل زمانه ثم اتصل بالوزراء والأشراف، فجالسهم وعاشرهم فتعلم منهم الظرف، فصار مثلاً في الناس وأحبه الخاصة والعامة)[4]. ليس هذا

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٦/١.
(٢) أخبار أبي نواس، لا بن منظور ٦/١.
(٣) أمالي المرتضى، ١٢٨/١، ١٣١.
(٤) طبقات ابن المعتز، ص٢٠١.

فحسب، ولكن للنص بقية تذكر أن أبا نواس كان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده، لماذا؟ (حتى انصرف إلى أخواني ومن أشار به لأني إذا كنت عندهم فلا أملك من أمري شيئاً).

ونظرة عجلى إلى هذا النص نستبين أن ثقافة أبي نواس العملية لا تقل أهمية عنده عن ثقافته النظرية فالنوادر والمجون والملح (الجانب العملي من ثقافته) لها من اهتمامه مثل ما لحفظ الاراجيز والأخبار وقراءة القرآن (الجانب النظري) على أنه حين اتصل بالوزراء والأشراف وعاشرهم وتعلم منهم الظرف والنظافة لم ينسه ذلك نزعته الاستقلالية، ولذلك كان يهرب من الخلفاء والملوك إلى إخوانه ممن كان يشارب حيث يجد نفسه في صدقها وحقيقتها في حين كان يحس أنه على نار مع طبقة الملوك والأشراف، ولا يملك من أمره شيئاً بينما كان يجد نفسه بين إخوانه وعند من كان يشارب ولذلك لم يستطع أن يحتل مكان أبان اللاحقي عند البرامكة كنديم لهم، وإن كان يمني النفس بذلك المنصب الخطير، حين استعد له، وذلك حيث يقول للوزير يحيى بن خالد البرمكي عند دخوله عليه:[1]

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه ... ويزيد في علمي حكاية من حكى
اتتبع الظرفاء أكتب عنهمو ... كيما أحدث من أحب فيضحكا

مع أنه استطاع أن يزري بأبان اللاحقي وأن يزحزحه عن مكانته عندهم ولكن دون أن يحتل مكانه، لأنه لا يصلح لمهمة النديم لدى الملوك والوزراء والأشراف كما صرح بذلك هو أيضاً، بل كان يصلح لمنادمة الإخوان والأصدقاء كما نص على ذلك هو أيضاً، وهكذا كان سلوكه، وجهة نظر ثقافية، كان طبعه أغلب عليها. ثم كيف يصلح لمهمة النديم من يصرح قائلاً:[2]

سأبغي الغِنى إما جليس خليفة ... يَقوم سواءً أو مُخيفَ سبيلِ
بكلِّ فتىً لا يُسْتَطار جَنانُه ... إذا نَوّه الزَّحفانِ باسمِ قتيلِ
لِنَخْمُسَ مالَ الله من كلِ فاجرٍ ... أخي بِطْنة للطيباتِ أكولِ

أو من يخرج لملاقاة الملوك (في زي الشطار وتقطيعهم بطرة قد صفقها وكمين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق)[3] في عصر اتخذت فيه الدولة أساليب وأزياء جديدة في الحجابة والوزارة والدواوين، مما جعل الخصيب يستخف به ويزدريه[4].

---

(١) أخبار أبي نواس، لأبي هفان، ص١٧.
(٢) طبقات ابن المعتز، ص٢١٦.
(٣) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/ ٢٣٥.
(٤) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

ولكن هل كانت محصلة هذه الشخصية من الوجهة العملية هي الشخصية النموذجية التي يشير إليها «العقاد» في كتابه عن أبي نواس والتي طبقت الافاق شهرتها وهي شخصية النديم اللاهي (الحاذق)[1]. حقيقة إن هذه الشخصية طرأت بعد عصر أبي نواس بأجيال ولكن الذين اخترعوها أو شكلوها لأبي نواس إنما أتوا بالمحصلة الأخيرة لما استقر في أذهان الناس عن هذه الشخصية العجيبة إن كانت حقيقة أو ابتداعاً. ويخيل إلى أن الأقدمين سبقوا العقاد إلى اكتشاف هذه الشخصية النموذجية لأبي نواس. ففي صبح[2] الأعشى ورد هذا العنوان:

(من كان فرداً في زمانه بحيث يضرب به المثل في أمثاله).

وهذا العنوان يكاد يكون ترجمة دقيقة لمفهوم الشخصية النموذجية عند العقاد حيث يقول في تفسيرها (أي شخصية تمثل نموذجاً اجتماعياً يعيش في كل زمن)[3]. وهو نفس ما تعنيه عبارة «صبح الأعشى» ولعل عبارة صاحب «صبح الأعشى» أدقّ في الدلالة على مضمون هذه الشخصية النموذجية أو هذا الفرد في زمانه حين قال[4] (وأبو نواس في المجون والخلاعة) بدلاً من «النديم اللاهي أو الحاذق» الذي فسر العقاد به هذه الشخصية وقد تكفي الإشارة إلى ما سبق من ألقاب أبي نواس لأنها أطلقت عليه في مناسبات مختلفة لتصور موقف المجتمع منه كما أنها تتضمن تقييماً عملياً لشخصه وأسلوب تعامله مع الناس من حوله.

والمهم أن أبا نواس في ثقافته العملية، اتسعت دائرة معارفه وأبعاد محيطه الإنساني، بحيث تجاوزت كثيراً حدود ثقافته النظرية أو العامة، ولقد رأينا، أن هذه الثقافة العملية، شكلت شخصيته المتميزة وطبعتها بطابع إنساني خاص، في حين تكفلت ثقافته العلمية ببنائه الفكري، وبهذه المزاوجَة بين الفكر الثقافي الواسع وبين الشخصية المتميزة بأبعادها الإنسانية فكان النتاج أبا نواس المتعدد المواهب والإمكانات... شاعراً... وفقيهاً... واحد عصره... ومحدثاً... وخطيباً... ونحوياً... وموسيقياً... إلخ. رديف الرشيد في أساطير ألف ليلة وليلة...!

---

(١) أبو نواس، للعقاد، ص٤.

(٢) ١/٤٥٣.

(٣) أبو نواس، للعقاد، ص١٨.

(٤) صبح الأعشى، ١/٤٥٤.